

# الأدب العربي في ماله فهي ما عليه

إدراك مقص





# الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

تأليف  
إدوار مرقص



# الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

إدوار مرقص

الناشر مؤسسة هنداوي  
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتيت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة  
تلفون: +٤٤ ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢  
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org  
الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

التقديم الدولي: ٢٠٩٠ ١٥٢٧٣ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: تَسْبُبُ المُصَنَّفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة لملكية العامة.

## المحتويات

٧	بِسْمِ الْعَلِيمِ الْفَتَّاحِ
٩	تَوْطِيْة
١٩	الْأَدْبُ الْعَرَبِيُّ فِي مَا عَلَيْهِ
٣١	الْأَدْبُ الْعَرَبِيُّ فِي مَا لَهُ
٧٩	النَّوَاحِي الَّتِي اتَّهَمُوا الْأَدْبَ الْعَرَبِيَّ بِالْعَجْزِ فِيهَا



## **بِسْمِ الْعَلِيِّ الْفَتَّاحِ**

هذه رسالة اجتهدت أن أجعلها — على صغر حجمها — خير سبيل واضح، موظاً الأكنااف، يفضي بسالكه إلى نماذج كافية من محسن الأدب العربي، وكأنها رياضة، ويدله على أمثلة من مساوئه، وكأنها على حواشي تلك الرياض أشواك وحجارة معثرة، مع الإشارة إلى دواعي الحسن والقبح في كلتا الفئتين تخللها نوادر طيبة، وقد تصدرت الجميع لمحّة ذات أشعة وَهَاجَةً في تاريخ الأدب العربي.

وأمّا ختام الرسالة ففصل ربما استحق أن يُعد فصل الخطاب في أوجه التقصير التي يُتهم بها أدبنا، ومبّلغ الصحة أو الزور من كل من تلك الأوجه مؤيداً بالدليل والشاهد، ومن ثمّ يتمكن قارئ الرسالة المعن فيها نظره أن يقف على الشيء الكثير من أسرار الأدب وقوفاً صحيحاً مجملًا، يغنيه عن التفصيل إن أراد الاستغناء، وييسّرّه على تفهمه أعظم مساعدة إن أراد أن يتبعه في مظانه من مطولات الكتب. والله المسئول ألا يخيب مسعاه فيما قصدته من خدمة نصوح لطلاب الأدب وأنصاره بهذه الصفحات اليسيرة.

لاذقية العرب (سورية)

إدوار مرقص



## توطئة

هذا البحث عنوانه إعلانه، فمتنى طرق الأذن ذكر موضوعه لمح العقل بداعه ما فيه من اتساع، وما له من سمو شأن، ولكنني لست أطمع في هذه العجالات أن أؤفّيه حقه بالتفصيل؛ لأنّ تفصيله يقتضي وضع كتاب يبلغ عدة مئات من الصفحات الكبيرة، مما أخشى أنْ يعجز عنه قلمي، أو وقتي، أو كيسني، أو الثلاثة معاً في الوقت الحاضر. ومن ثمّ لم يكن لي بد من أنْ أقنع بالإجمال لهذا البحث، إجمال يطوّقه بنظرات سريعة، أرجو ألا تكون على سرعتها مخطئة خائنة فأفي من حقه نصيباً صالحاً.

للأدب بضعة تعريفات مختلفة في الظاهر، متقاربة في النتيجة، وأماماً الذي أعنيه بالأدب العربي هنا فمنظوم العرب ومنتورهم، وقد رأيت بالاختبار الطويل – كمارأى كثيرون غيري من الذين سبقوني والذين عاصروني – أنَّ الأدب العربي خير صلة، وضمان ولاء بين الخاصة من العرب والمستعربين، وإنْ اختلفوا رأياً ومبدأ وسيرةً في بعض نواحي الحياة والمجتمع، وتنافروا قليلاً أو كثيراً من أجل ذلك. فعلى قدر التفافهم حول هذه الرابطة الجوهرية الشريفة – رابطة الأدب العربي – وحرصهم عليها؛ يقل خطر اختلافهم فيما عادها، ويخف تناقضهم أو يزول.

ولو لم يكن للأدب العربي إلّا هذه المكرمة لكتفته فضلاً وفخرًا، فكيف به وهو يحرز معها تاريخاً مجيداً عريقاً في قدمه، وقوة بيان تسحر الألباب، وفتح لقضاء الحاجات الأبواب، ودستوراً واسعاً لمكارم الأخلاق، ودهاء رجال العقول. هذا شأن الأدب العربي، فكيف لا نلتفت إليه وننظر في ما له وفي ما عليه؛ لكي ننتقي هذا ونستزيد من ذاك ... والأدب أشرف أنواع العلم، وأجمل ألوانه، وألصقها بخلجات القلوب، وومضات العقول، ومزایاه هذه تكاد تظهر بداعه، ويقنع بها الحس والوجدان في كل محادثة

ومفاوضة ومظهر اجتماعي من أمور الناس. لا ترون أنَّ كُلَّاً من عالم الطبيعيات، وعالم الكيمياء، وعالم الفلك، وعالم الرياضيات، وعالم النبات والحيوان، والطبيب، والصيدلي، والفيلسوف، والفقية، واللاهوتي؛ إذا لم يكن له مع تضليله من الفرع الذي تخصص به نصيُّب حسن من صناعة الأدب، يظهر على أسللة لسانه، أو أسللة قلمه عابه كثيراً تقديره ذاك، وأذري به، وخفَّض قيمة ما أحکم تحصيله في العيون، وقلَّص من مهابته في النفوس. وهذا الشرط لا يلزم الأديب تجاه العلوم إلى الحد الذي يلزم العالم تجاه الأدب، وإنْ كان لا ننكر زيادة قوة وبهاء للأديب حين يضرب بسهم صالح من العلم. وهناك أيضاً للأدب مزية أخرى عظيمة الشأن، وأريد بها الثبات والخلود لقوامه وأركانه، فإنَّ ما يحسب اليوم من محاسن القول وبلغ الكلام، كان يحسب هكذا منذ ألف سنة، بل ألفين وأكثر، وما هو اليوم ردِّيءٌ كان عند الأقدمين ردِّيئاً، فمبادئُ الأدب ونومسيه في التعبير والتفكير لم تتغير في جوهرها وفي الكثير من أغراضها، وأماماً نظريات العلوم ومبادئها فقد تغيرت مراراً، بل انقلب بعضها رأساً على عقب، ولا تزال عُرْضة للتغيير والتبدل والانقلاب.

ولا بأس — قبل الدخول في صلب الموضوع — أنْ أشير باختصار إلى الأطوار الأساسية التي اجتازها أدبنا العربي، من أوائل نشأته حتى اليوم؛ فإنَّ بين الموضوع الحاضر وهذه الإشارة لحمة نسب واضحة، أرى مراعاتها أقرب إلى الإنصاف، وأضمن لاستتمام الفائدة. إنَّ الطور الأول للأدب العربي — حسبما تداوله وتناقله كُتابُ العرب ورواتهم — هو عهد الجahلية الثانية. وأول من اشتهر من شعرائها عدي بن ربعة التغلبي المعروف بالمهلهل، وقد عاش قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة. ثم تعاقب بعده شعراء العلاقات السبع، أو السبع الطوال، أو المذهبات السبع، ومعهم غيرهم من أمراء الكلام، كأشى ميمون، والشَّنْفُرَى، وعلقمة الفحل، والنابغة الذبياني، وحاتم الطائي، وأبي كثير الهذلي، وعروة بن الورد، وقس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، وغيرهم جمهور كبير.

غير أنَّ جماعة من المحققين المحدثين وبينهم جرجي بك زيدان من أبناء عصرنا الحاضر، نظروا في الأدب العربي نظرة أدق وأوسع فرجَّحُوا، بل أيقنوا، أنَّ عصر الجahلية الثانية ليس أول عصور الأدب العربي، ولكن لنا أنْ نتسامح بتسميتها كذلك باعتبار أنه أول عصر للأدب العربي وصل إلينا الشيء الكثير من آثاره وأخباره. وأماماً النشأة الأولى للأدب العربي فهي قبل الجahلية الثانية بقرنٍ كثيرة، هي معاصرة لإبراهيم الخليل وربما سبقته، هي معاصرة لأبناء عمومتها من قدماء الأشوريين والبابليين والفينيقيين.

وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك بذكر الجاهلية الأولى، كما أشارت إليه الأخبار المبهمة المبتورة عن العرب البائدة، وأعظم قبائلها: عادُ الأولى، وعاد الثانية، وثمود، وطسم، وجidis، وجرهم، والعماليق، ومن الإشارات إلى مدينة العرب القديمة ورود ذكر الإسماعيليين في التوراة، أي: العرب المستعربة المتحدرة من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، ومشترأهم ليوسف الصديق من إخوته، وذكر الملوك الرعاة الذين هم من أصل عربي، وتبوؤُهم عرش الفراعنة حقبة طويلة من الدهر، وقد سمي عصرهم عصر الملوك الرعاة، وقد ثبت أو كاد يثبت أنَّ أليوب الصديق الذي عاش في حوران واسع الثروة، عريض الجاه قبْل الميلاد المسيحي بنحو سبعة عشر قرناً؛ كان عربياً من العرب العاربة القحطانية.

ومن الأدلة على عروبته كلامه في سفره، فإن فيه كثيراً من الصور المجازية المأنوسية في الأدب العربي، لا سيما عند وصفه الفرس، ولا شك أنَّ حوادث الدهر من حروب وثورات وزلازل وطغيان مياه اجتاحت تلك المدينة العربية القديمة، وطمانت آثارها، وفي جملة ذلك لغتها، وأدبها، وعلمها، وصناعتها. على أنَّ لغة العرب البائدة وما تَخَلَّفَ عنها من لغة حمير وسباء، لم تكن نفس لسان مصر المبين، أي: لغة قريش، ولغة بعض القبائل الموثوق بعربيتها في الجاهلية الثانية، التي هي لغتنا الفصحي، بل كان بين اللغتين فروقاً كثيرةً واضحة.

وقد قيل: إنَّ تلك اللغة القحطانية القديمة كانت وسطاً بين اللغة العدنانية الحاضرة واللغة السريانية، ولكنها إلى العدنانية أقرب، وإذا تنسى لشبه جزيرة العرب أعمال حفر وتنقيب عن الآثار كما تنسى ذلك لوادي النيل، فلا بدُّ أنَّ يكتشف الباحثون آثاراً وعاديات، وكتابات مختلفة توضح الشيء الكثير من مدينة العرب، وأدبهم من قبْل الميلاد المسيحي بنحو عشرين قرناً إلى ما بعده بأربعة أو خمسة قرون، كما دلت الآثار المكتشفة في وادي النيل على قسم كبير من تاريخ الفراعنة، ورعاياهم من قدماء المصريين، وعاداتهم، وأدبهم، ومعتقداتهم.

ومن أوجه ما قاله المحققون بهذا الصدد، أي: وجود أدب عربي قديم قبل الأدب العربي المعهود عندنا، المعמורה به مدارستنا ومجالستنا ومكاتبنا وصحفتنا؛ أنَّ لغات البشر لا يمكن أنْ تبلغ أشدّها فجأة بل تدريجياً في عصور متطرفة، ولا شك أنَّ اللغة العربية خاضعةً لهذا الناموس الاجتماعي المعقول.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يعقل أنَّ القرن السادس للميلاد — وهو عهد الجاهلية الثانية — كان عهد النشأة الأولى للغة العربية وأدبها في منظوم القول ومنتوره، بل هو جزء من طور شبيبتها، فقد عهدناها فيه قوية بمفرداتها، وسبك قوالبها، ومترافاتها، وطرق مجازها، وروائع أفكار أدبائها وخطبائها. فلا جدال أنَّ هذا الطور سبقه طور طفولة، وطور صبوة، ولا يمكن أنْ تولد اللغة شابة والأدب شاباً، إلَّا إذا أمكن أنْ يولد الآدمي شاباً، ومما يؤيد هذه النظرية التي تُشفِّع عن بعد نظر قول زهير بن أبي سلمى المزنبي:

لا أرانا نقول إلَّا معاراً      أو معاداً من قولنا مكروراً

وقول عنترة بن شداد العبسي:

هل غادر الشعراً من متقدم      أم هل عرفت الدار بعد توهم

وفي هذين القولين دليلٌ واضحٌ على أنَّ القوم لم يكونوا يَدَّعون لعصرهم ما قد يدعوه بعضنا له من ابتكارات في الأدب، وإحداث مذاهب خلبة فتاتنة في القول، بل يعتقدون ويعترفون أنَّ أسلافهم القدماء لم يكادوا يتربكون زيادة لمستزيد في ذلك الصعيد. وبديهي أنَّ أسلافهم كانوا من أدباء العربية أيضاً بحيث يفهمون آثارهم ويتدوّلونها، ويشاربون إلى فصل أصحابها كما رأيتم. فلم يكن أولئك الأسلاف من أدباء الفرس، أو اليونان، أو الرومان مثلًا ... ولو وجد التدوين والكتابة في الجاهلية الثانية لوصل إلينا شيء يستحق الذكر، مما كان يرويه ويعرفه أهلها من آثار وأخبار الجاهلية الأولى.

أمَّا الجاهلية الثانية فالمعروف عندها من مزايا أدبها نظماً ونثراً: الصدق، والصراحة، والجرأة مما يلائم طبيعة أهلها، واستقلالهم في شئونهم، وأنفتهم. ويتبع ذلك اعتدال معظمهم في المبالغة مع فصاحة أسلوبهم، ومتانة كلامهم في مفرداته ومركيباته. ولا غرو فهُم أصحاب اللسان المضري المبين، وعلى أقوالهم بُنيَت قواعده وأحكامه بالاستقراء، كما بُنيَت على آيِّ القرآن الكريم.

ثم جاء عهد المخضر مين فعهد الأمويين، فحافظوا في أدبهم على هذه المزايا السامية، واكتسبوا فوقها مزاياً آخر، منها: تجافيهم عن كثير من مظاهر الخشونة البدوية، التي كانت تطفو على شيءٍ غير يسير من الأدب الجاهلي. ومنها: تحصيلهم فوائد ومعلومات

وفضائل كثيرة بعد دخولهم في الإسلام، ووقفهم على عقائده وأدابه و دقائق شريعته. وبعد تغولهم في المعيشة الحضرية، واصطدامهم بمدنية الأنباط، واليونان، والسريان، والروماني.

فاستعنت أمام مداركهم وتصوراتهم آفاقاً جديدة من التفكير، وقضت عليهم طبيعة العمران، وعوامل السياسة والإدارة والقضاء، والجنديية أنْ يَتَانِقُوا، ويطيلوا أنفاسهم في الخطب والمراسلات والمحاورات والوصايا المختلفة. وكان الجاهليون لا يكادون يعرفون إلا الساطحة والإهانة والاقتضاب في هذه المطالب.

وهذا العصر أحظى جميع عصور الأدب العربي ببلغة الأداء والقوالب العربية الصحيحة، وإن كان كل عصر من بقية العصور بعده لا يعد من ذلك حصة جليلة أو ضئيلة، ومن المتعارف المتفق عليه بين علماء العربية أنه يجوز الاستشهاد على أي بحث أريد من مباحث متن اللغة والصرف والنحو بأقوال الأدباء الأمويين، كما يجوز الاستشهاد بأقوال الحاھلین والمحضرمن.

هذا هو الأوج العظيم الذي بلغه أدب العرب في العهد الأموي، وقد تولت زعامته بلادنا الشامنة هذه.

أين سكانك الكرام علينا  
ثُم ساروا ولست أعلم أينما  
قلت يوماً لدار قومٍ تفانوا  
فأجابت هنا أقاموا قليلاً

وأَمَّا مَنْ جَاءَ بَعْدَ عَهْدِ أُمَّةٍ مِّنْ عَبَاسِيِّينَ، وَأَنْدَلُسِيِّينَ، وَفَاطِمِيِّينَ، وَمَغَارِبِيِّينَ، فَلَا يُجُوزُ الْإِسْتَشَهَادُ بِقَوْلِ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ، وَلَوْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِيَّةِ وَالشَّهْرَةِ مَبْلَغاً عَظِيمًا، إِنَّمَا يُجُوزُ الْإِسْتَئْنَاسُ بِأَقْوَالِهِمْ فِي هَذَا السُّبْلِ لَا اتَّخَذُوهُ حَجَةً دَامِغَةً، كَمَا يُجُوزُ تَقْدِيمُ الْأَمْثَلَةِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، وَفِي غَيْرِهِ مِنْ مَصْطَلِحَاتِ عِلْمٍ أَوْ فَنٍ أَوْ صَنَاعَةٍ، أَوْ عَادَةٍ جَارِيَّةٍ، أَوْ حَادِثٍ تَارِيْخِيٍّ، أَوْ حَدِيثٍ مَأْثُورٍ، مِنْ أَقْوَالِ أَيِّ أَدِيبٍ كَانَ إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى هَذَا الْمَطْلَبِ، سَوَاءً كَانَ الْأَدِيبُ مَتَّقِدًا فِي الزَّمَانِ أَوْ مَتَّأْخِرًا.

ثم جاء العصر العباسي وما حاذاه من عصور أهل الأندلس، ثم عصور الدول التي انشقت عنه – أي: عصور الفاطميين، والمغاربة، وأآل بُوئْيَة، وأآل حمدان – وحملة الأقلام في هذه العصور يُعرفون بالمولدين أو المحدثين، كما يُعرف العصر السابق – أي: عصر بني أمية – بالعصر الإسلامي الأول، أو العصر الإسلامي القديم، أو العصر الإسلامي باطلقة، اللفظ.

وقد وصلت المدنية العربية في العصر العباسي وفروعه إلى الذروة العليا في العلم والفن، والصناعة والسياسة، وترف المعيشة. واشتد اختلاط العرب بالأعاجم تحت الريات العربية إلى حد مدهش، فتأثر الأدب العربي بهذه الأحوال الطارئة أيمًا تأثر، وظهرت له ألوانٌ وصبغات علمية وفنية واجتماعية لم تكن معهودة منه في الطور السابق — أو كان له منها لمحات يسيرة لا يكاد يتبيّنها إلَّا الباحث المتأمل — ومن ثُمَّ اتسع نطاق المنظوم والمنتور في ضروب التفكير والتعبير.

ولا شك أنَّ هذا التقدُّم الأدبي يُحسب حسنة كبيرة من حسنات تلك المدنية الزاهرة الباهرة، ولكن الناقد البصير لا ينسى أنه قام يومئذ إزاء ذلك الإحسان مساعدة مخزية بعوامل المدنية نفسها. نعم، إنَّ الملدين ازدادت أساليبهم رقة وتفنناً، ولكنهم قصروا في متانة اللفظ وصحة التركيب عن أسلافهم، نعم، إنهم أبرزوا من دقائق المعاني والتشابيه ومدهشات التأويل والتعليق ما لم نعهد من رجال الأدب العربي القديم، ولكنهم قصروا عنهم مسافة شاسعة في الصراحة، والجرأة، والإباء، والألفة، إذ قام مقام ذلك في كثير من آثارهم نفاقٌ وتداليسٌ وخنوعٌ واستخذاءٌ، ذهبت دولة البساطة والطبيعة لحل محلها دولة التصنُّع والتتكلف.

ولا شك أنَّ من نتائج ذلك التتكلف ما مني به القوم من الولوع بالسجع، أي: الكلام المُقْفَى إلى غايةِ أفسدت محاسنه ونكرت معالمه، فقد أسرفوا في ذلك إسراًًا مستقلًّا، بحيث أصبح السجع ستاراً كثيُّراً لعجز العاجزين إزاء السامعين والقارئين، إلَّا إذا كان فيهم أهل بصر وبصيرة لا يعوقهم ذلك الستار عن صحة النظر وصحة الحكم. هكذا شأن الكلام المسجع إذا أفرط فيه أصحابه، وأمَّا إذا جرى مجرى الاعتدال، وكان رصيناً حالاً محله؛ فلا شك أنه يُحسب حلية من حل الأدب.

والذي قلناه في السجع يصح أيضًا في غيره من المحسنات البديعية اللفظية، وأهمها الجنس على اختلاف أنواعه؛ فقد أفرط القوم في ذلك على سبيل التحذق، والمباهة الفارغة، فأساءوا وافتضحوا، ولو اعتدلوا لأحسنوا وأصابوا.

ومن مفاسد تلك الحقبة الطويلة، عادةُ التغُّرُّ بالغلمان والتمتع بهم، والتباهي بذلك والتنافس في سبيله. ومحصل القول: أنَّ استباح الدول العربية في عمرانها، وشدة احتكاكها بالمدنيات القديمة للفرس، والسريان، واليونان، والروماني، والقبط، والنبط؛ أفادهم في عدة نواحٍ من العلم والأدب، والفن والصناعة، ورغد المعيشة، وأضرَّ بهم في نواحٍ آخر بدبيب العدوى الخبيثة فيما أشرنا إليه من مفاسد القول والعمل.

ثم جاءتْ عصورُ الانحطاط من القرن الثامن أو التاسع للهجرة إلى أواسطِ القرن الثالث عشر، وأسبابُ الانحطاط ضعفُ الدول العربية، بل زوال كثير منها مع ما أصابَ البلاد من جوائح هولاكو، وتيمور لنك، والحروب الصليبية، وحروب عرب الأندلس مع جيرانهم الفرنجة، وتطاوُن العرب هناك فيما بينهم، وانقسامهم إلى دويلات سميَّ أمراؤها: ملوك الطوائف، ثم ذهب ريحهم جملة، وترکهم البلد لأصحابها الأُولَئِينَ.

إنَّ هذه الأحداث وقفتْ سدوداً عالية من حديد في وجه الأدب العربي في الثقافة العربية، فلم يكن أهل العلم والأدب يرون أمامهم من تنشيط مالي أو معنوي بعض ما كان يتمتع به أسلافهم، ففترتْ همهم، ثم كَلَّتْ قرائتهم وأقلامهم، واقتصرُوا على التقليد الجامد، والمحاكاة الجافة بعبارات ركيكة وخواطر قاصرة.

ولكن هذا الطور — على ضعفه — أفادنا بإخراج عدة كتب نفيسة من الموسوعات العلمية والأدبية، حشدت فيها تحف وطرف كثيرة من أقوال المتقدمين والمولدين، ولم يحرِّم هذا الطور رجال قرائح نيرة وأذهان حادة، كابن خلدون، وجلال الدين السيوطي، وصفي الدين الحلي، وابن نباتة المصري، وابن النبيه، وغيرهم.

و قبل الخروج من التوطئة الحاضرة يجدر بي أنْ أوجه نظر القارئ إلى الكراهة العظيمة التي نالها الأدب العربي في عيون الأعاجم، فضلاً عن عيون أهله، حتى إنَّ الإسبان جيران العرب وعشّاءهم كانت فئاتٌ منهم تُقبل عليه وتتدارسه، وينبغى بينها من يجيد النثر والنظم في اللغة العربية.

ومن مرويات ذلك الزمان أنَّ أحد زعماء الدين المسيحي من الإفرنج، وكان أستقَافاً لقرطبة كتب إلى بعضهم يشكُّو زهد أبناء أبرشيته، ولغته في اللغة اللاتينية التي هي عندهم لغة الدين، وتاريخهم الكنسي، وتاريخهم القومي، حتى إنَّ بعضهم ضعفاء فيها إلى درجة مخجلة، في حين أنَّ كثريين منهم فُتنوا باللغة العربية والأدب العربي، وأقبلوا عليهما حتى بلغوا منها درجة حسنة كأنهم عرب أقحاحاً عن جد.

ومدلول هذا الحادث جليٌّ واضح، لا يحتاج إلى شرح وتعليق، فواأسفاه، وواخجلاه! ما أعظم الفرق بين حالنا وحال أسلافنا أولئك! نصرتهم عزَّةُ الجانب حتى غزت الأجانب في عقر دارهم، كما نصرت الأجانب اليوم حوالينا حتى غزتنا في عقر دارنا.

ولقد وقفت على ديارهم  
وطولها بيد البلى نهُبُ  
فتلفت عيني فمذ خفيت  
عني الطولول تَلَفَّتَ القلب

ثم جاء بعد عهد الانحطاط عهد نهضتنا الحديثة الحاضرة، التي ابتدأت منذ مائة سنة تقريباً على عهد المغفور له محمد علي باشا — مؤسس الأسرة المالكةاليوم في مصر — فقد انتصر للعرب والعربية انتصاراً صادقاً، مبارك التمرات، وحدث حذوه في ذلك سلالته الطيبة، وقام أهل سوريا ولبنان بقسطٍ كبير من مظاهر هذه النهضة، ولا نبالغ إذا قلنا: إنهم قاموا بالقسط الأكبر منها في أوائل نشأتها، وكان معظم الفضل يرجع إلى همهم وقرائهم، لا إلى حوكامتهم وحكامهم، ولم يقصر في هذا السبيل أهل مصر، والعراق، والمغرب، وجزيرة العرب. ولكن بخطواتٍ أبطأ.

ولا يلزمني الساعة أن أفيض الكلام بشأن نهضتنا الحاضرة، فنحن اليوم لا نزال في قيد الحياة نخوض عبابها، ويقاد يغتنينا فيها الخبر عن الخبر، ولكن لا بد من إلقاء حكم إجمالي عليها بكلماتٍ وجيدة، فأقول: إنَّ الأدب العربي فيها — ومن مشتملاته المستحدثة صافتة القوية قوة نسبية — يفوقُ بصورة ظاهرة الأدب العربي الذي تاخمه وانسلخ عنه — أي: أدب عصر الانحطاط — فقد ترقى فيه النظم والنشر إلى درجة محسوسة؛ إذ تخلص معظمها من التكلف والتقليل في المقدمات والاستطرادات، والسجع وأمثاله من البديع اللغطي، ولكن نهضتنا الحاضرة في هذا العصر لا تزال مقصرة بصورة ظاهرة عن عهد المؤلدين وعهد الأمويين.

ولا شك أنَّ القطر المصري السعيد بما له من اتساع رقعة وثروة، وكثرة سكان، ومئات الألوف من الجاليات العربية لعدة أقطار، ولكل منها علماء وأدباء وأساتذة؛ أصبح ذا حق اجتماعي بين في زعامة نهضتنا الأدبية هذه، ولكن هذا الحق المعنويُّ الشريف الذي له — ولا نظن بلداً عربياً ينكره عليه — تقبّله واجبات يقتضي منه أداؤها، وأعظمها شأنًا أن يقدم الصبغة الأدبية العربية العامة على كل صبغةٍ وطنيةٍ مصرية، فالزعامة الصحيحة تتطلب من صاحبها أن يكون فوق الأحزاب والتقاليد والعنونات، وإلا فلا يحسن نفسه الزعيم الأعلى العام، بل زعيماً خصوصياً لهذا الجيل من الناس، أو لهذا الإقليم من البلدان.

ويليق بي أنْ أختتم هذه النبذة في تاريخنا الأدبي بإيراد كلماتٍ مأثورة في الحكم على عدة من متعلقاته، أمّا الإنشاء فقد قيل بشأنه: «بدئت الكتابة بعد الحميد، وخُتِمت بابن العميد». وقال الصاحب بن عباد: «إنَّ بلغاء الزمان وفحول منشئيه أربعة: الصابيء، وأبو بكر الخوارزمي، وابن العميد، ولو شئت أنْ أذكر رابعهم لذكرُه». ي يريد نفسه، وهو بهذا الإضمار لم يدع لنفسه أكثر من حقها.

وأمامَ الشِّعْرِ فَقَدْ قِيلَ بِشَأنِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: «أَشْعُرُ الْجَاهِلِيِّينَ امْرَأَ الْقَيْسِ إِذَا غَضَبَ، وَأَعْشَى مَيْمَونَ إِذَا طَرَبَ، وَزَهِيرَ بْنَ أَبِي سَلْمٍ إِذَا رَغَبَ، وَالنَّابِغَةَ الْذِيَّانِيَّ إِذَا رَهَبَ، وَعِنْتَرَةَ الْعَبَسيِّ إِذَا رَكَبَ». وَقِيلَ: «بَدِئُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ بِمَلْكٍ، وَخَتَمَ بِمَلْكٍ» يَرِيدُونَ امْرَأَ الْقَيْسِ، وَأَبَا فَرَاسَ الْحَمْدَانِيَّ، وَكَانَ الْعَرَبُ يَتَوَسَّعُونَ فِي بَعْضِ تَسْمِيَاتِهِمْ، فَيَسْمَونَ مَلَكًا كُلًّا أَمِيرًا مِنْ أَسْرَةِ مَالَكَةٍ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَوا فِي تَسْمِيَةِ كُلِّ مَنْ امْرَأَ الْقَيْسِ، وَأَبِي فَرَاسٍ مَلَكًا.

وَقِيلَ: «مِنْ رَوْيِ اعْتِذَارَاتِ النَّابِغَةِ، وَحَوْلِيَّاتِ زَهِيرٍ، وَحُكْمِ الْمُتَنَبِّيِّ، وَمَدَائِحِ أَبِي تَمَامَ، وَتَشْبِيهَاتِ ابْنِ الْمَعْتَزِ، وَخَمْرِيَّاتِ أَبِي نَوَّاسٍ، وَزَهْدِيَّاتِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ، وَلَطَائِفَ كَشَاجِمَ، وَرَوْضِيَّاتِ الصَّنْوَبِرِيِّ؛ وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى الشِّعْرِ فَلَا أَشْبَهُ اللَّهَ قَرْنَهُ». وَهِيَهَا أَنْ يَرْوَيَ أَدِيبٌ هَذِهِ الدَّوَاوِينَ كَلَاهَا، فَالصَّحِيحُ أَنْ تَرْوَى مِنْهَا خَلَاصَاتٌ وَمُخْتَارَاتٌ كَافِيَّةٌ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الَّتِي أَوْرَدَتْهَا رَبِّما وَقَعَ فِيهَا تَحْرِيفٌ زَهِيدٌ عَنْ سَهْوِ مِنِّي، أَوْ عَنْ اخْتِلَافِ رَوَاتِهَا الْأَصْلِيَّينَ فِيمَا رَوَّهُ، وَعَلَى كُلِّ الْحَالِيْنَ لَا يُعُدُّ الْفَرْقُ جَوَهْرِيًّا يَفْسُدُ جَوَهْرَ الْقَضِيَّةِ. وَالْفَائِدَةُ الَّتِي أَتَوْخَاهَا، وَمَا يَتَنَاقِلُونَهُ ذَكْرُ تِسْعَةِ مِنْ فَحْولِ الشِّعْرَاءِ اشْتَهَرَ كُلُّ ثَلَاثَةِ مِنْهُمْ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ: امْرَأُ الْقَيْسِ، وَالنَّابِغَةُ الْذِيَّانِيُّ، وَزَهِيرُ ابْنِ أَبِي سَلْمٍ، وَلِعَصْرِ الْأُمُوَّيِّينَ: الْأَخْطَلُ، وَجَرِيرُ، وَالْفَرْزِدُقُ، وَلِعَصْرِ الْعَبَاسِيِّينَ: أَبُو تَمَامَ، وَالْبَحْتَرِيُّ، وَالْمُتَنَبِّيُّ.



## الأدب العربي في ما عليه

أما مطاعن الأدب العربي إجمالاً فقد دعاني سياق الحديث باللحمة التاريخية في السطور السابقة إلى ذكر بعضها، وهي: التكُلُّ، والإفراط في السجع والجناس، والتغزُّل بالغلمان، وعلىَّ الآن أنْ أذكر بقيتها مع تقديم أمثلة عليها جمِيعاً. فمن تلك المطاعن أيضاً: الغلوُّ، أي: الإفراط في المبالغة، وطول المقدمات والاستطرادات، ونظم قواعد العلوم شرعاً، والإقداع في الهجاء، والبذاءة في التعبير خارج باب الهجاء، والإفراط في المدح، وتصدير قصائد المدح، والتهنئة بالغزل، والتسيب، والتشبيب، وتحويل الخصومة الأدبية أو المناظرة الأدبية إلى عداوة صريحة، فمن التكلف ما جاء على منوال قول القائل:

لم تحك نائلك السحابُ وإنما حُمِّت به فصَبِيبُها الرحضاء

الرحضاء هو عَرق المحموم، خاطب الشاعر مدووحه قائلاً: إنَّ السحاب لم تحك كرمك حين هطلوها، بل أصابها الحسد لقصيرها عنـه، فأمرضها وأصابتها الحُمَّى، وما الماء الذي تسخـّ به إلَّا عرق الحمى! فتأمل هذا التكـلف البارد، وهذا الإغراب المضحـك، فالبيت يدل على دقة تفكير، وفساد ذوق معاً، ومن هذا القبيل قولُ إبراهيم بن سهل الإشبيـلي في وصف جمال محبوبـه:

يـمثل لي نـهج الصـراتـ بوـعـده  
تـغـصـ بـمـرأـاه النـجـومـ وـرـبـما  
فـتـي جـنـةـ الفـرـدـوسـ فـي طـيـ بـرـدـه  
تـمـوتـ غـصـونـ البـانـ غـمـاـ بـقـدـه

وأعيد هنا بشأن هذين البيتين ما قلته في بحث أدبي لي قديم، قلت: إنَّ كل هذا العناء بتمثيل صراط يوم الدين في وعد مخلوق آدمي، واحتمال ثيابه على جنة الفردوس تحتها، وغصة النجوم حين تراه لحسدها إياه، وموت غصون البان غمًّا حين ترى اعتدال قوامه لا يفعل شيئاً في نفس الأديب الناضج؛ لظهور الكلفة عليه، واستصعب الذهن أنْ يستحضر صورته الحسية. هذا مع أنَّ ناظم البيتين اشتهر بالرقابة والسلasse، ولكن سبحان من جعل لكل قاعدة شذوذًا.

والإفراطُ في السجع أوضاعٌ وأشكالٌ من أنْ يحتاج إلى تمثيل؛ إذ لم يك ينجو منه كاتبٌ كبيرٌ أو صغير من أدباء المولدين. ولا شك أنَّ كثريين منهم أجادوه، فجاءوا به راسخًا في موضعه غير متزعزع، وإحكامهم له على هذه الصورة خفَّ سامة القارئ منه ولكنَّه لم يُزلُّها؛ لأنَّ القطعة الطويلة من الكلام إذا سُجعَت جملُها كلها أحَسَّ لها السامع ببعض الثقلِ، ووَدَّ لو تستريح أذنه من قسم فيها إلى شيءٍ من الكلام المرسل هذا، ولو جاء سجعها حسناً فصيحاً. وأمَّا إذا كان ركيكًا فهناك البلاء الذي لا يُطاق، إذا كان من نمط مخاطبة ذلك السيد لخادمه: «من بالباب أيها المهاب ...»

إنَّ السجع الطيب في أدبنا العربي كثيرٌ، وأكثرُ منه السجع المتوسط الحسن، وللسجع القبيح زوايا غير قليلة. فمن السجع الطيب ما جاء في أثناء فصل للوزير الملهي أبي محمد الحسن وزير معز الدولة بن بويه في العراق قال: قد ترامت — بفلان — البلدان والأسفار، ونبت عنه الأوطان والأوطار، وضاقت به الأعطان والأقطار — إلى أن يقول: تركت قلبه طافحًا بوجده، ودممعه سافحًا على خده، قد أمرته أنْ يجعل رأيك سراجه، ورسمك منهاجه — ثم يقول: لست غفلاً عن الدهر فتنكر نوائبها، ولا مطيقًا له فتدفع مصائبها، قد تناشت الأيام قواه، وشذبت الحوادث هواه.

فهذا الكلام المسعج بصورة رشيقه أنيقة؛ مقبولٌ مستحسن، ولكن على شرط أن يكون قاصراً لا يزيد على المثال الذي أوردته هنا، فإذا بلغ أضعافه حجمًا كما هي فصول الملهي وغير الملهي من كبار المسجعين كالصابي، وابن العميد، والصاحب، والحريري، والهمذاني، وأمثالهم؛ أتعب الأذن والذهن، ووجد القارئ المتوسط الفهم كثيراً من فقره جاءت حشوًا أو لغوًا، أو ساقها السجع أنْ تكون ماراتفاتٍ لما قبلها بحيث يستغنى عنها. وهذه الزيادة تناقض البلاغة، ويسمى بها البلاغة إسهابًا، وطالما عهدنا الزيادات في أمور كثيرة انقلبَت إلى نقائص.

وقد ألوح المولدون بالسجع إلى حدٍ صاروا معه يُعدُّون غياب السجع دليلاً عجز وقصیر، ولو في تسمية كتاب، أو فصل من كتاب، أو قصيدة، أو خطاب، أو نبذة قصيرة.

وهذا الاصطلاح في التسمية لا يزال أكثرنا يجري عليه في العصر الحاضر، مع أنَّ التخلص من أُسرِه أجدُّ بنا وأَدُلُّ على قوة التمييز فيها. ومن ثمَّ بتنا نرى من أسماء الكتب: طِيب العرف في علم الصرف - عقود الجمان في المعاني والبيان - ضوء الشرق في علم المنطق - قطف الزهور في تاريخ الدهور ... إلخ ... إلخ.

ومما سمعت به أنَّ رجلاً من أبناء عصرنا - وقد انتقل إلى رحمة ربه - كان يعد نفسه من المطلعين على اللغة العربية وعلومها، حتى همَّ بتأليف كتابٍ في النحو، فهاتوا حدىكم في التسمية المسجعة التي اختارها له، سماه: «الكتاب المقطَّع في علم النحو فقط»، ونحن نحيز التسمية المسجعة بمتلها قائلين: «الدهر لم يرتكب الغلط، بإخفاء كتاب على هذا النمط».

وأدعى إلى الغرابة مما ذكر أنَّ رجلاً أراد أنْ يُؤْبَن صديقاً له اسمه فليمِن، وكان المؤبن ضعيفاً حتى في محادثة اعتيادية، فضلاً عن الخطابة، وكل ما يعلمه أنَّ التقافية شرط واجب أداؤه على كل خطيب وكاتب، فقام في الحشد وقال: «أيها السادة، وأسفاه! مات الكريم الفاضل صديقنا فليمِن ... نعم نعم مات حبيب قلوبنا فليمِن ... أبجد هوز حطي كلامن». ثم نزل عن المنبر، وقد أصاب وأظهر خفة روح بسرعة هربه، فلو صبر إلى فقرة ثالثة في تأبينه البليغ لهرب المنبر منه. ويقال - والعهدة على من سمع وروى - إنَّ الخطيب لَمَا عاد إلى مجلسه بين القوم سأله أحدهم: ما بالك اختصرت التأبين كل هذا الاختصار؟ فأجابه: خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولم يمل.

وأدهى من هذا أنَّ رجلاً من أدباء الأدب كان يتمدح ويقول: إنه سريع الخاطر في كل قافية أرادها أو أريدها منه، ولو كانت صعبة مستعصية، فقال له بعض خلاته ذات يوم: هات لنا شيئاً من القوافي على حرف الثاء، ففكَّر هنيهة، ثم قال: «لم أزل على فعل الخير ثلثاً، وناقتي ترعى من البيداء فيصوماً وجثجائاً». ثم ارتج عليه فتوقف فتضاحكوا، وقالوا: أللث، فقال: «وأم عمرو طالق ثلثاً» يريد بأم عمرو امرأته. فطلقت منه، وأقبل أهله وأهلها يلومونه ويقولون له: ويحك ما ذنبها إليك وكانت ساعة طلاقتها تخدم بيتك وتتنظفه، وتعد طعاماً لك ولأولادك، فأجابهم: بل الذنب ذنبها لا ذنبي، فلماذا استهدفت للخطر ووقفت في وجه قافيتني.

وأماماً تزاحم الجناس والتکلف فيه فهو أيضاً كثيراً في آثارنا الأدبية، فليس من الحسن  
أنْ يقال مثلاً:

لظلمك ظلماً منك ميل لعطفة  
أما لك عن صد أمالك عن صد

وفي البيت تقديم وتأخير في غير مواضعهما مما جعله معقداً وعرّاً، كل ذلك إكرااماً  
لحاطر المجازنة بين أما لك — أي: أليس لك — وأمالك من الفعل أمال. وبين صد  
وصد بمعنى عطشان، وبين ظلم بالفتح — أي: ريق — وظلم. وحل البيت نثراً على  
وجه صحيح يكون هكذا: أما لك ميل عن صد صب ظلمته وهو صد إلى ظلمك — أي:  
معطش لريقك.

وأزيدكم علمًا أنَّ البيت لرجل عظيم من أشعر شعرائنا، وأقدرهم في صناعة الكلام،  
وحسن سبكه، وأعجبهم توفيقاً في أنواع البديع، لا سيما الجناس والطباق أريد به عمر  
بنifarض، ولكن إفراطه في هذه الأنواع قد يُلجه إلى ما نذكره. هذا شأنه في إفراطه،  
فما القول فيمن دونه من الأدباء إذا استرسلوا إلى مثل هذه الزخارف اللغوية، وأين موقع  
الجناس في البيت المذكور من حسن موقعه في الأبيات التالية للفارض نفسه في قصيده  
الثانية الكبرى، المسماة نظم السلوك؟ قال أحسن الله إليه وإلينا بأنفاسه:

نعم بالصبا قلبي صبَا لأحبتني  
فيما حبنا ذاك الشذا حين هبت

إلى أنْ يقول:

أمور جرت في جانب الشوق قَلَّتِ  
قرى فجرى دمعي دمًا فوق وجنتي  
وقالوا جرت حمراً دموعك قلتِ مِنْ  
نحرت لضيف الطيف في جفني الكري

ومنها قوله:

شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي  
وبالوحش أنسني إذ من الأنس وحشتني  
وأبعدني عن أربعيني بعد أربع  
فلي بعد أوطاني سكونٌ إلى الفلا

ومن النكات المروية بشأن الجناس أنَّ أميرًا كان شديد الولوع به، ففكَر ذات يوم أنه يمكن إيهاد جناس تام بين قم فعل أمر من قام، وقم اسم بلدة في مملكته، وما عتم أنْ عزل قاضيًّا كاتبًا إليه: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم». فقال القاضي: والله ما عزلني إلَّا محبةُ الأمير للتجنيس والقافية. فتأملوا تكلُّفًا خبيثًا في القول يعزل قاضيًّا فاضلًا من منصبه، ويطلق امرأة بريئة من بعلها.

ومن دواعي الدهشة والاستغراب أنَّ هذه التزويفات اللغظية التي ليس تحتها طائل كبير استهوٌت كثيرين من جبابرة العقول بين أدباء العرب، وقادتهم إلى ميدانها، وفي جملتهم شاعرُ الفلسفه وفيلسوفُ الشعراء أبو العلاء المعري؛ فإن تقييده بنوع الالتزام في القوافي لا يخرج عن كونه نوعًا من تلك الأنواع اللغظية. وقد بني عليه معظم شعره، فوصل إلينا ديوانه «اللزوميات» مسمىًّا بهذا النوع، ولو لم يتقييد به لرأح نفسه من عناء كبير، ولجأ تعبيره أرسخ، وأسلس قيادًا في مواضع كثيرة. ولما خسر الأدبُ العربي بهذا الانتعاق شيئاً من الفائدة واللذة.

وأمّا التغزل بالغلمان فمن أمثلته قول الشريف البياضي:

غض الخدود وخرمنا الأرياقُ كانت تقام لطيبها أسواقُ ما كان طعم هوى الملاح يذاقُ لا يُرجى لأسيرها إطلاق	أيام نرجسنا العيون ووردنَا ولنا بزوراء العراق مواسم أين الأغيلمة الأولى لولاهُمْ شنُوا الإغارة في القلوب بأعين
---	---

وقول كمال الدين بن النبي:

فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى  
 فقد جاء زحفًا في كتيبة الخضرا  
 بعارضه فاستؤنفت فتنَة أخرى  
 حديثًا كأنني لا أُريد له ذكرًا  
 إليهم ولكنني أذوب به فكرًا  
 من الحسن لكن وجهه الآية الكبرى  
 فهذا قد استغنى وهذا اشتكتي فقرا

رنا وانتشى كالسيف والصعدة السمرا  
 خذوا حذرا من خارجي عذاره  
 غلام أراد الله إطفاء فتنَة  
 أغالط عُذالي إذا ذكروا له  
 وأصغي إذا جاءوا بغير حديثه  
 نبي جمال كل ما فيه معجز  
 وظامئَةُ الخلخال إن وشاحها

لها معصم لولا السوار يصد  
دعنتني إلى السلوان عنه بوصلها  
إذا حسرت أكمامها لجري نهرا  
وما كنت أرضى بعد إيماني الكفرا  
إذا شغلتني عنه غانية عذرا  
بأي اعتذار أكتفي حسن وجهه

ولكن كثريين من القوم خالفو هذا المذهب مفضلين الجمال الأنثوي، حتى قال  
قائلهم:

نظرت إليها لا وبسمها الألمي  
ولكن أعارته التي الحسن ملكها  
صفات جمال فادعى ملكها ظلما

وأقرب من هذا ما رُوي من أنَّ أحد الخلفاء، وقيل: هو المأمون العباسي غضب  
على إحدى حظایاہ فانتهرا وطردھا من حضرته، فذهبت إلى حجرتها مغتمة منكسرة  
الخاطر، ثم رأى سيدھا أنَّ عقوبتھا كانت أشد مما تستحق، فأرسل إليها من قِيلَه غلامًا  
يجب خاطرها، ويبشرها برضى الخليفة عنها، وأبطأ الغلام بالعودۃ إلى سیدھ، فلما عاد  
قال له سیدھ:

بعثتك مرتاباً إليها بحاجةٍ  
أرى أثراً منها بعينيك لم يكن  
فأخلفتني حتى أسأت بك الظنا  
لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا

ومما فيه إشارة إلى المذهب الأول مذهب أصحاب الغزل المذكر قول أحدهم، وفي  
عجز البيت الثاني تورية لطيفة:

مهفهфан لعبا  
قالت أنا قمرته  
بالنرد أنتي وذكر  
قلت اسكنتي فهو قمر

وأصرح من ذلك قول بدر الدين بن الدمامي:

تحدث ليلاً عارضه بأنني  
فأقبل صبح طلعته ينادي  
سأسلاوه وينقطع المزار  
كلام الليل يمحوه النهار

و فوقه في الصراحة و سوء الاندفاع قول الآخر:

هل يحسن الروض ما لم ينبت الزهر  
أم هل تزحزح من أجفانه الحور

قالوا التحي و ستسلاو عنه قلت لهم  
هل التحي طرفه الساجي فأهجره

وقد رد على هذا الاندفاع من قال:

على حاله الأولى وذاك غرورٌ  
إذا سقطت في الماء وهو نميرٌ

يقولون ماء الحسن من تحت شعره  
أسنا نعاف الماء من أجل شعرةٍ

وأماماً الإفراط في المدح فمن أمثلته قول المتنبي:

لو الفلك الدوار أبغضت سيره لعوقةٌ شيءٌ عن الدوران

ولكن صيغة القول عن طريق الاشتراط والافتراض خفت قبح هذا الغلو، فهو خير  
من قول متنبي الغرب ابن هاني الأندلسبي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

والغلو أكبر عيوب هذا الشاعر المقتدر، ولو لاه لبلغ في الأدب مرتبة أجمل وأعلى.  
وأماماً البذاءة في التعبير فمراجعها في معظم مواقعها إلى ما لا خير فيه من ذكر  
متعلقات الفسق والفحotor ولو ازمهما، ومما جاء في هذه المزالق على صورة خفيفة ولكن  
تركها، كان خيراً وأشرف قول المتنبي:

إنني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

فإن قافية البيت هجنته كله، مع أنَّ معناه حسن شريف لو اختير له أسلوب شريف،  
وأشنع من ذلك تعبيراً قول الأبيوردي:

بتعنيس أبكار القرىض الكوابعِ قضتْ عنة التمييز والفهم في الورى

الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

خرائد شعرى يُفترعن إغارةً ويُملكون سبيلاً كإلماء الجلائب

العنة هي العجز في الوظيفة التناسلية، والتعنيس عدم التزويج، والافتراض افتراض البكاره.

وعلى هذا المنوال قال في الخمرة ومجلسها غيره، وأظنه صفي الدين الحلي – إذا لم تُخنِي الذاكرة:

عذراء واقعها المزاج أما ترى منديل عذرتها بكف سقاة

أراد تشوييقاً إلى ذلك المجلس وإغراء به، ولكنه لما ذكر الواقع وهو الفعل الشنيع، ثم شفعه بمنديل العذرة أقرف السامع أيما إقرار، وزهدَه أيما تزهيد، وأبعد ميله عن تلك المباعة الموبوءة وأهلها ألف فرسخ، لكيلا يمس كأسهم وطاسهم، ويمس منديل العذرة شفتيه.

ومن تعابيرهم البعيدة عن اللياقة والاحتشام قولهم: كانت فلانة تحت فلان – أي زوجاً له – وقد كان للقوم عذر، أو شبه عذر في هذا التعبير وأمثاله؛ لقرب عهدهم من عهد الجاهلية، وقرب بيئتهم من بيئه البدو، وأماماً نحن أبناء العصر الحاضر فلا عذر لنا، ولا رائحة عذر فيها ذكر.

ومن تلك المطاعن الإقذاع في الهجاء – أي: الإفراط في قبح اللفظ – مع أنَّ الهجاء بتهكم أدبي أوقع وأوجع، قال الجاهلي:

دع المكارم لا ترحل لطيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

الطاعم الكاسي – أي: الأكل المكتسي – وكان الأخطل في تمدحه يقول: ما هجوت أحداً قط بما تستحي منه العذراء أنْ تسمعه أو تنشده، وهي في خدرها. ومن الهجاء المؤلم مع تنزهه عن فحش اللفظ قول بعضهم:

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وقول الآخر:

فَكَانُوهُمْ خَلَقُوا وَمَا خَلَقُوا  
رَزَقُوا وَمَا رَزَقُوا سِمَاحٍ يَدِّ

وقول غيره وقد أراد المرور في أثناء سفره بمنزل صديق له في إحدى المدن، فلما  
شعر الصديق بقدومه تغيب عن منزله عمدًا، واعتذر الخدم إلى الضيف بما حضرهم من  
كلام ملْفُق، فانتظره عبًّا نحو ساعة، ثم انصرف بعد ما ترك له رقعة فيها هذان البيتان:

يَا تَارِكًا مِنْ بَخْلِهِ بَيْتَهُ  
ضَيْفَكَ قَدْ جَاءَ بِزَادٍ لَهُ

وَأَمَّا الْهَجَاءُ الْمَقْدُعُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ كُونِهِ شَتَّمًا صَرِيجًا، فَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

هُوَ الْكَلْبُ وَابْنُ الْكَلْبِ وَالْكَلْبُ جَدُّهُ  
وَلَا خَيْرٌ فِي كَلْبٍ تَسْلُسلُ مِنْ كَلْبٍ

وقال بهاء الدين زهير:

فَإِذَا ذَكَرْتَكَ فِي الْكَلَابِ  
بِحَطَّطَتْ مِنْ قَدْرِ الْكَلَابِ

كَأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ قَبْلَهُ هَاجِيًّا بْنِ باهْلَةَ:

وَلَوْ قِيلَ لِلْكَلْبِ يَا باهْلِي  
عَوِي الْكَلْبِ مِنْ لَؤْمِ ذَاكَ النَّسْبِ

وَمَا أَبْلَغَ ذَلِكَ الْعَوَاءَ الَّذِي هُوَ تَمَامًا بِمَقْامِ احْتِجاجٍ عَنْدَ أَهْلِ السِّيَاسَةِ، وَسَحْبٍ  
بِرُوتُسْتُو عَنْ الدُّجَارِ.

وقال بهاء الدين أيضًا:

لَعْنَ اللَّهِ صَاعِدًا  
وَبَنِيهِ فَنَازِلًا  
وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وقال آخر:

نحا بك لؤمك منحى الذبا      ب حمته مقاذيره أَنْ ينالا

وأَمَّا ما وراء هذه المنزلة من التقبیح في الهجاء، فالأولى ترك أمثلته عادلين عنه إلى  
الهجاء الأدبي اللطيف في أدن سامعه، وإن لم تستطعه أدن المهجو، ومنه قول الشيخ  
ناصيف اليازجي في بخيل:

قد قال قوم إِنَّ خبرك حامض  
والبعض أبدى بالحلوة حكمه  
من ذاقه يوماً ليعرف طعمه  
كذب الجميع بزعمهم في طعمه

وقلت أنا في رجل جافي الطبع والقول:

جفاء الكل ممزوج بليين  
وهذا عنده محض الجفاء  
كأن الناس من ماء وطين  
وجبلته بطين دون ماء

وأَمَّا تصدير قصائد المدح بالغزل والنسيب والتشبيب، فأمر في منتهى القبح  
والغرابة، إذ أي علاقة لغرامك يا فلان، أو شووك إلى وطنك، أو تأسفك على إطلال أحبابك  
بما تريده من مدح فلان أو تهنته، وإنما هي عادة درج عليها بدو الجاهلية لإظهار ما  
تحملوه وضحوا به في سبيل الوصول إلى المدح؛ وذلك لأجل هز أريحيته، أو إظهار  
 ولو عهم به، وحسن ظنهم فيه، وهذا العذر ليس بالعذر الكافي لهم في اتخاذ تلك العادة  
 المستهجنـة، ولكن على كل حال يسمى عذراً، فإذا أضفنا إليه عدم استقصاء ابن الباـدية  
لشروط التأدب والاحتشام مصداقاً لقول أبي تمام:

فإذا كشفتهم وجدت لديهم      كرم النفوس وقلة الآدـب

مع تعود البدوي إطلاق لسانه بما ي肯ه جنانه من فراق أهل وأحباء وشوق إليهم،  
إذا أضفنا ذلك إلى العذر السابق لم نستنكر على الأعراب اتخاذ تلك العادة، ولكن ما عذر  
الحضري فيها، ولا سيما ابن القرن العشرين، وربما كان هو والمدح في بلدة واحدة،  
بل في شارع واحد، فما معنى مشقة السفر التي عانها، والأشواق التي قاسها، والمطية

التي أضنته وأضناها، وقد نبهت على قبح هذه العادة وأنا في القاهرة منذ أكثر من ثلاثين سنة، حين انتقدتها على ثلاثة من كبار الشعراء هناك استعملوها في معارضات شعرية بينهم لحدثٍ معين.

وأمّا نظم الأراجيز في قواعد وأحكام بعض العلوم، كالصرف، والنحو، والبيان، والمنطق، وبعض حوادث التاريخ، فوجه التعسف والتكلف فيه أوضح من أنْ يحتاج إلى بيان. والحمد لله على تخلص نهضتنا من هذه العادة، كما تخلصت من غيرها.

وأمّا طول المقدمات في كتابات كثيرة من أدباء العرب، فهو داخل في أنواع التخلف أيضًا مما تقدم ذكره، ومثلها الاستطرادات إذا كثرت وطالـت، وهو أمر يدعو إلى إتعاب الذهن والذاكرة في وصل كل مطلب بأخيه، بعد ما تكون تلك الاستطرادات قد فصلت بينهما، ومن الاستطرادات التي شوهـت محسـنـا ما اكتـنـفـها، ما وردـ منهاـ في كتاب «كـلـيـلـةـ وـدـمـنـةـ» فـلـوـلاـ طـولـهاـ وـكـثـرـتهاـ هـنـاكـ، وـتـدـخـلـ الأـغـرـاضـ بـعـضـهاـ فيـ بـعـضـ بـسـبـبـهاـ، لـجـاءـ الكـتابـ تـامـ الحـسـنـ وـالـبـهـاءـ.

وأمّا الخصومة والمنافسة فحقـهاـ أـلـاـ تـتـعـدـىـ دائـرـتهاـ، فـلـاـ تـتـحـولـ إـلـىـ عـداـوةـ وـمـنـاكـدةـ، وـجـعـلـ الأـبـيـضـ أـسـوـدـ، وـالـأـسـوـدـ أـبـيـضـ ماـ نـرـاهـ وـقـعـ، وـلـاـ يـزالـ يـقـعـ فيـ كـثـيرـ منـ الـخـصـومـاتـ الـأـدـبـيـةـ بـيـنـ أـدـبـاءـ الـعـرـبـ، وـمـنـهـاـ نـقـائـصـ جـرـيرـ وـالـأـخـطـلـ، وـجـرـيرـ وـالـفـرـزـدقـ، وـمـاـ كـانـ أـجـدـرـ هـؤـلـاءـ الـقـوـمـ أـنـ يـتـأـدـبـواـ بـأـدـبـ سـلـفـهـمـ الـصـالـحـ مـاـ أـجـمـلـهـ بـكـلـمـةـ مـأـثـورـةـ حـضـرـةـ الـخـلـيـفـةـ عمرـ بـنـ الـخـطـابـ، حـيـثـ قـالـ:ـ «ـإـنـيـ لـأـغـضـبـ وـلـاـ أـقـولـ إـلـاـ حـقـاـ»ـ، وـإـنـيـ لـأـرـضـيـ ولاـ أـقـولـ إـلـاـ حـقـاـ»ـ.



## الأدب العربي في ما له

إنَّ للآثار الأدبية في لغتنا عدة مزايا يمكننا أنْ نحصر أعظمها شأنًا فيما يلي: الفصاحة ومتانة السبك - حسن الإيجاز - حسن الإطناب - غزارة المادة في الحكم والأمثال - مظاهر الحماسة والحمية والأريحية - المراثي - الصراحة والجرأة - الإشارة والكتنائية - المداعبة وخفة الروح. ولا شك أنَّ المزايا التي تُحسب للأدب العربي تفوق في مقدارها وتأثيرها أضعاف المطاعن التي تؤخذ عليه.

أمَّا الفصاحة ومتانة السبك فمن أمثلتها قول زهير بن أبي سلمى في مدح آل غسان:

وعند المقلين السماحة والبذل	على مكثريهم رزق من يعتريهم
رشدت فلا غبن عليك ولا خذل	إذا قام منهم قائل قال قاعد
توارثه آباء آبائهم قبل	وما يكُن من خير أتونه فإ إنما
وتغرس إلاً في منابتها النخل	وهل ينبت الخطي إلاً وشيجه

وقول البحتري في الخليفة المتوكل على الله: وكان علماء الشعر يلقبون شعر البحتري سلاسل الذهب؛ لروائه وحسن سبكه:

رجال عن الباب الذي أنا داخله	ولما بلغنا سدة الأدن أُخْرت
أقابل بدر التم حين أقابله	فأفضيَتْ من قرب إلى ذي مهابة
سرابيله عنه وطالت حمائله	بدالي محمود النقيبة شُمرت

وقول ابن طثريه من شعراء ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام:

بعيد وأنصاري لديك قليل فأفنيني علّاتي فكيف أقولُ ولا كل يوم لي إليك رسولُ ستنشر يوماً والعتاب طويلاً فحمل دمي يوم الحساب ثقيل	فديتك أعدائي كثير وشقي وكنت إذا ما جئت جئت بعلة فما كل يوم لي بأرضك حاجةٌ صحابٌ عندي للعتاب طويتها فلا تحملني إثنى وأنت ضعيفةٌ
---	--

وقول القائل:

قرب الحبيب وما إليه وصولُ والماء فوق ظهورها محمولُ	وأشد ما لقيت من ألم الهوى كالعيش في البداء يقتلها الظما
---	--

وقول الآخر:

كأن به عن كل فاحشة وقرا ولا مانع خيراً ولا قائل هُجرا	أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه سليم دواعي الصدر لا باسط أذى
--	---

وهجر الكلام بضم الهاء، هو السخيف البعيد عن الصواب.

وقول بعضهم يصف موقف وداع:

وشهدت حين نردد التوديعا ورأيت أنَّ من الحديث دموعاً	لو كنت ساعة بيننا ما بيننا لعلمت أنَّ من الدموع محدثاً
--	---

وقول إسماعيل باشا صبري متحسراً على الصبا والصباية:

ولا بشافعة في رد ما كانا حمل الصباية فاخفق وحدك الآنا	أقصر فؤادي بما الذكرى بنافعة سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً
--	--

وقول ابن نباتة المصري واصفًا الخمر:

نار تطوف بها في الأرض جنات  
فاسترجمت من رُؤوس القوم ثارات

كأنها في أكف الطائفين بها  
تذكرة عند قوم دوس أرجلهم

ومن الإنصاف أن نلتقي مع إيراد الأمثلة الكثيرة من شعر رجال العرب إلى شيءٍ من  
شعر نسائهم، والذي عَنَّ لي الساعة من أمثلة الفصاحة، وحسن السبك أبياتٌ لولادة ابنة  
المستكفي بالله — أحد ملوك الطوائف في الأندلس — وهي التي قال فيها الشاعر المجيد  
الوزير ابن زيدون قصيده الشهيرة: «أضحي التئي بديلاً من تدانيا». قالت ولادة:

لحاظكم تجرحنا في الحشى  
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا

ولحظنا يجرحكم في الخدوذ  
فما الذي أوجب جرح الصود

وقالت:

ولما أبى الواشون إِلَّا فراقنا  
غزوتهم من ناظريك وأدمعي

وما لهُ عندي وعندي من ثار  
 وأنفاسنا بالسيف والسيف والنار

ومن فصيح القول الممتاز بهاءً وصفاءً قول تماضر السلمية المعروفة بالخنساء،  
وهي محضرمة إذ أدركت الجاهلية والإسلام، قالت في جاهليتها ترثي أخيها صخرًا:

وإنَّ صخرًا لحامينا وسيدنا  
وإنَّ صخرًا لتأتِمُ الهداة به  
لم تلقه جارة يمشي بساحتها

وإنَّ صخرًا متى نشتو لنحار  
كأنه علم في رأسه نار  
لرببة حين يخلقي بيته الجار

ويقال: إنَّ أبا منصور الحاج المتتصوف الشهير كان متهمًا في دينه لبوادر أقوال  
منه، يحملها كثيرون محمل مذهب فلسفي يقول به، فلما حضرته الوفاة قال له بعض  
من حواليه انطق بالشهادة، فرفع وجهه نحو السماء وقال:

إنَّ بيتك أنت ساكنه

ليس محتاجاً إلى السرج

وقلت أنا في جملة قصيدة طويلة واصفًا جيش الدستور العثماني، وزحفة على  
الأستانة تحت قيادة محمود شوكة باشا سنة ١٩٠٨ :

إلى الموت كي يحيي شعوبًا تناسبه  
كما برقت أبصارها وقواضبها  
ترزح قطب الظلم عنها وجانبه  
وقوض عرشاً قوض العدل صاحبها  
بنصر شموس رَوَضْتُ تجارية  
وهل كان من جند السماء كتائبها  
يعادل ما قد أَمَلْتُنا عواقبها  
يكاد يزول الدهر وهي تطالبة

وما أنس لا أنس العرمرم زاحفًا  
وقد خفقت أحشاؤها وبنوده  
وكانت ترى أن كلما شن غارةً  
إلى أن دهى قصرًا دهى ملك أمة  
وخلى دهاقين الوغى حائرى النهى  
فهل كان مصبوب القضاء خيولهُ  
وما ذلك النصر المبين وإن سما  
فثم قضاء الدهر دينًا لأمة

ثم ذكر حالة قصر السلطان المخلوع المعروف بقصر يلدز، وأنقل منه إلى وصف  
موقف الوفد الاتحادي الذي أقبل على السلطان ينذره بأن الأمة خلعته قائلاً:

حواسده أَمْسِيَنْ وهي نواديه  
وقد حزن دهرًا أَيْ عز تغابله  
تطأمن حتى طاولته مساربه  
لأن بهاء الحق كان يجانبها  
فما كان منه الصدر رحباً جوانبه  
إلى ابن السلاطين المهيب مواكبها  
إلى حابس الأرذاق لا من يحاسبها  
إلى شاغل الدنيا فليست تغاضبها  
يقول أخلع الملك الذي أنت ناكبها  
وجريدة يأس معجزات عجائبه  
فرائصه واستاذن الجفن ساربها  
ليبقى له ذل الحياة معاقبها  
فتلك حياة أو هو الموت جالبها

ألا منْ رأى القصر الذي شَتَّ شمله  
وراحت غوانيه حيارى ذليلةً  
تطاول حتى لا علوًّ فمذ عنا  
حوالى ألف كنز لم تؤيد بهاءه  
ولم يهن بانيه برب دياره  
إلى صاحب التاج الرفيع مقامه  
إلى مالك الأعناق غير محاسب  
إلى الواسع النعمى إلى الهائل الدها  
أتنى الوفد عالي الصوت والهام عابساً  
وكان وراء الوفد جيش وأمة  
فأدعن جبار الملوك وأرعدت  
وحيا بكلتا راحتية تضرعاً  
وكان زماناً أن أشار بأصعب

أصاع اختياراً عز نفس تصاحبه  
وما هكذا فعل الرجال يناسبه  
ومجمع أصداد يحار مراقبه

فما باله إذ هدموا عز ملكه  
ألم يبق في حد الرجال وإن هو  
ولكنما عبد الحميد طلاسم

ومن فصيح المثلور أنَّ أبو تمام أنسد أحد الوزراء قصيدة أعجبته فانتصب على  
قديمه، وقال: لا أسمع هذه العروس إلَّا وأنا واقف، فأجابه أبو تمام: لو أنها من حور  
الجنان لكان قيامك أوف صداق لها.

واتفق أنَّ أحد أكابر القوم أراد تبكيت أبي تمام ذات يوم، فقال له وهما مع جمهور  
من الناس في مجلس الخليفة — وكان أبو تمام قد أنسد هناك قصيدة: لِمَ لا تقول من  
الشعر ما يفهم، فأجابه: وأنت لِمَ لا تفهم من الشعر ما يقال، فأفحمه.

ومن ذلك أنَّ المؤمن الخليفة العباسي دخل على الملكة زبيدة بعد مقتل ابنها الأمين  
في أثناء الحرب بينهما، وكان المؤمن قد أمر برد كرامتها وأموالها إليها، فرأها تبكي،  
فعطف عليها وقال: كفي بكاءك، فسأكون لك ابنًا عوض ابنك، فقالت: كيف لا أبكي  
ولدًا أكسبني ابنًا مثلك.

ويقال: إنَّ شابًا رأى والده المريض قد ألح عليه المرض حتى يئس الأطباء من  
شفائه، فقال له: يا أبي ما تشتهي؟ فأجابه: أنْ اشتهي. أي: أنْ تعود لي قوَّة على الشهوة.  
وسُئل الأصمسي: لِمَ لا تقول الشعر وأنت من كبار علمائه؟ فقال: لأنَّ ما أريد منه  
لا يأتيني، وما يأتيني منه لا أريده.

وأمَّا الإيجاز فمن الأمثلة على محاسنه: أنَّ أحد الخلفاء رأى قائداً من قواد جيشه،  
وقد طعن في السن، فقال له: لقد كبرت، فأجاب: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: وإنَّ  
فيك لبقية. فأجاب: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: وإنك لجلد شديد، فأجاب: على أعدائك  
يا أمير المؤمنين.

وسُئل ذو الوزارتين الصاحب بن عباد، وكان من أكابر المنشئين العارفين بمحاسن  
السجع فيه على طريقة تلك العصور: ما أحسن السجع؟ قال: ما خف على السمع، قالوا:  
مثل ماذا؟ قال: مثل هذا.

ومرض أبو الطيب المتنبي وهو في مصر، فجعل صديقُ له مخلصٌ يعوده كل  
يوم، ويحسن تفقده، والعناية به، ومجالسته، ومؤانسته، فلما أبلَ الشاعر — أي: قارب  
الشفاء — أمن عليه صديقه، وانقطع عن العيادة، فكتب إليه شاعرنا العظيم: «وصلتني

— وصَلَّكَ الله — معتلاً، وقطعوني مbla، فإن رأيت ألا تحب العلة إلى، وتنغص الصحة على، فعلت إلن شاء الله».

وظلم أحد العمال رجلاً من رعاياه، فشكاه المظلوم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: «اكفني أمره وإن كفيته أمرك». وكتب إلى عامل آخر بلغه عنه ما يسوعه: «إذا دعوك قدرتك إلى ظلم من تحتك، فاذكر قدرة من فوقك عليك».

وقال الإمام علي بن أبي طالب: «الناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر» وروي عنه — وقيل بل عن الإمام عمر — هذه الكلمة الباهرة الحكمة: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوه بأخلاقكم».

وقدم الفرزدق على الإمام الحسين أحد السبطين وهو في العراق، فسأله الإمام عن الشام وما جاورها، ورأى أهلها فيه، فأجابه: «الناس معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء».

ومما اشتهر ببلاغة الإيجاز توقيعات الخلفاء والأمراء والوزراء، لا سيما في صدر الدولة العباسية.

ومن طيب الإيجاز في الشعر أنَّ أميرًا شجاعاً أراد الخطابة في قومه فارتज عليه، فنزل عن المنبر وهو يقول:

إذا لم أقم فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جد الوعي لخطيب

فقال أحد الحاضرين: إننا إلى أمير فعال، أحوج منا إلى أمير قوال.  
ومما أراه من الإيجاز السهل الممتنع في لين عبارته، وقوه إشارته، إجمال مدحش  
لذهب التفاؤل والاستبشر، وحسن الظن في هذه الحياة بقول القائل:

سألت الأرض لم كانت مهاداً  
ولم جعلت لنا طهراً وطيباً  
فقالت غير ناطقة لأنني  
حويت لكل إنسان حبيباً

وأراد جماعة من الأدباء التمتع بنزهة ومجلس أنس في عيد الفطر المبارك، فكتب أحدهم إلى صديق لهم متغيب يدعوه إلى مشاركتهم:

شهر الصيام تولي وشهر شوال هلا

وقد حضرنا جميـعاً فـي إن حـضـرـتـ إـلـا

وقلت أنا عن لسان بعضـهـمـ في هـدـيـةـ بـعـثـتـ بـهـاـ إـلـىـ أحـدـ الـكـبـارـ:

محقرة في ذاتها	هـذـيـ إـلـيـكـ هـدـيـتـيـ
في نبل مدلولاتها	لـكـنـهاـ مـحـمـودـةـ
كـرـيمـ منـ أـدـوـاتـهاـ	الـودـ وـالـإـلـاـصـ وـالـتـ
لـلـدىـ حـمـاكـ فـهـاـتـهاـ	تـرـجـوـ الـمـعـزـةـ بـالـقـبـوـ

وأـمـاـ الإـطـنـابـ فـإـنـ مـحـاسـنـ لاـ تـقلـ عـنـ مـحـاسـنـ الإـيـجازـ رـوعـةـ وـبـهـجـةـ،ـ وـلـاـ تـنـقصـ  
عـنـهـاـ فـيـ الدـلـالـةـ عـلـىـ سـلـامـةـ ذـوقـ الـأـدـبـ،ـ وـقـوـةـ طـبـعـهـ،ـ وـفـيـضـ قـرـيـحـتـهـ،ـ بـلـ إـنـ المـتـعـةـ  
بـمـحـاسـنـ الإـطـنـابـ أـوـقـ أـشـفـىـ مـنـ المـتـعـةـ بـمـحـاسـنـ الإـيـجازـ.

وهـذاـ فـرـقـ نـتـيـجـةـ طـبـيعـيـةـ لـاـ فـيـ الإـيـجازـ مـنـ قـصـرـ وـمـاـ فـيـ الإـطـنـابـ مـنـ طـوـلـ،ـ وـالـأـدـبـ  
الـعـرـبـيـ عـامـرـ بـآـثـارـ طـبـيـةـ لـكـلاـ طـرـفـيـنـ.ـ وـمـنـ الإـطـنـابـ الـطـيـبـ فـيـ شـعـرـنـاـ الـقـدـيمـ مـاـ قـالـهـ  
أـبـوـ حـيـةـ النـمـيـريـ يـصـفـ فـتـىـ تـعـرـضـ لـمـائـمـ —ـ أـيـ:ـ مـجـتمـعـ نـسـاءـ —ـ فـإـنـ المـائـمـ فـيـ الـوـضـعـ  
الـلـغـوـيـ هـوـ مـجـتمـعـ النـسـاءـ فـيـ أـيـ أـمـرـ كـانـ،ـ ثـمـ غـلـبـ الـاـصـطـلاحـ عـلـىـ تـخـصـيـصـهـ بـالـحـزـنـ.  
—ـ وـكـانـتـ بـيـنـ النـسـاءـ فـتـاةـ مـمـتـازـ حـسـنـاـ وـدـلـالـاـ،ـ فـلـمـ يـبـالـ بـهـاـ مـاـ غـاظـهـاـ وـصـوـيـبـاتـهـاـ،ـ  
وـجـعـلـهـاـ تـجـدـ فـتـنـتـهـ،ـ وـالـكـدـ فـيـ كـيـدـهـ،ـ وـسـرـعـانـ مـاـ أـفـلـحـتـ،ـ وـهـذـاـ هـوـ الـنـظـمـ:

نـثـومـ الضـحـىـ فـيـ مـائـمـ أـيـ مـائـمـ	رمـتـهـ فـتـاةـ مـنـ رـبـيـعـةـ عـامـ
وـلـكـنـ بـسـيـماـ ذـيـ وـقـارـ وـمـيـسـمـ	فـجـاءـ كـغـصـنـ الـبـانـ لـاـ مـتـبـاـيـنـاـ
سـلـيـمـاـ وـإـنـ لـمـ تـقـتـلـهـ فـأـلـمـمـيـ	فـقـلـنـ لـهـ سـرـاـ فـدـنـيـاـكـ لـاـ يـرـحـ
بـأـحـسـنـ مـوـصـلـينـ كـفـ وـمـعـصـمـ	فـأـلـقـتـ قـنـاعـاـ دـوـنـهـ الشـمـسـ وـاتـقـنـ
وـعـيـنـيـهـ مـنـهـ السـحـرـ قـالـتـ لـهـ قـمـ	وـقـالـتـ فـلـمـاـ أـفـرـغـتـ فـيـ فـؤـادـهـ
تـنـادـواـ فـقـالـواـ فـيـ الـمـنـاخـ لـهـ نـمـ	فـوـدـ بـجـدـ الـأـنـفـ أـوـ إـنـ صـحـبـهـ
تـرـوـحـ أـمـ دـاجـ مـنـ الـلـيـلـ مـظـلـمـ	وـرـاحـ وـلـمـ يـعـلـمـ أـفـيـ سـاعـةـ الضـحـىـ

ومن حسن التَّانقُ في الإطناب قول ناصح الدين الإرجاني:

وآخر عهدي يوم جرعاء مالك  
ولما دنت والستر مرخى ودونها  
تقدمت أبغى أن أبيع بنظرة  
بمنعرج الوادي وإطعانهم تحدى  
غيارى غدت تغلى صدورهم حقداً  
إلى وجهها روحى لقد رخصت جدًا

ومن جيد الإطناب ما ذكره أبو سعيد الرستمي أحد الشعراء المولدين في قصيدة له باسطأً حالة غريبة لحب مع ركب فيهم حبيبته، وهو يجهلون كنه أمره، وإن كانوا يرونها يسير لسيرهم، ويقف لوقوفهم، ويستطيع لخدمتهم بكل ما يستطيعه، حتى ظنوه فقيرًا سائلاً ينتظر فضلات زادهم ليتهمها، وهذا الذي قاله أبو سعيد:

إذا نزلوا أرضاً رأوني نازلاً  
 وإنْ أخذوا في جانبِ ملْتُ آخذًا  
 وإنْ عرفوا أعلام أرض عرفتها  
 وإنْ عزموا سيرًا شدتُ رحالهم  
 وإنْ وردوا ماء حملت سقاءهم  
 يظنونْ أنني سائل فضل زادهم  
 وإنْ رحلوا عنها رأوني راحلا  
 وإنْ عدلوا عن جانبِ ملْتُ عادلاً  
 وإنْ أنكروا أنكرتُ منها المجاهلا  
 وإنْ عزموا حلاً حلت الرحائلا  
 أو انتجعوا غيثًا حدوت الرواحلا  
 ولو لا الهوى ما ظنني الركب سائلاً

وهذا البيت الأخير في الأنفة الكامنة يضرب عنها صاحبها صفحاً في سبيل غرامه، يذكرني بيته لقيس بن الملوح العامري المعروف بمجنون ليلي، قال:

يعدونتي مجنون عامر في الهوى      ولو لا هواها ما كنت سيد عامر

وقد أراد قيس في موقف آخر التناصل من تهمة الجنون قائلاً:

يقولون مجنون يهيم بذكراها  
إذا ما أردت الشعر في غير حبها  
فو الله ما بي من جنون ولا سحر  
أبى — وأبيها — أن يطاوعني شعري

وأمام الإطناب الطيب في شعر المعاصرين، فمن أمثلته التي تحضرني الساعة ما قاله الشيخ إبراهيم الحوراني ذاكراً موقف فراق، وإشارة الحبيبة له إشارة توديع بمنديل كف كثير الألوان، غير ناسٍ وصفَ السفينة وسيرها، قال:

ما أنس لا أنس التفاتتها وقد  
وغدت تلوح للعميد إشارة  
منديل كف عطُرُه من جبهة  
تندى بلمحة عاشق ممنوع  
يعلو ويتحقق في الهواء كأنه  
علم على جبل أشم مني  
ما كان أشبهه بمهرجة صبها  
لولا سلامته من التقديع  
جرت السفينة بالبخار ونارها  
جمر الحشى والماء لج دموي  
فحسبت أنْ أضالعي أواحها

عbeth الفراق بشملنا المجموع  
بمدبج بهج كزهر ربیع  
تدنى بلمحة عاشق ممنوع  
لولا سلامته من التقديع  
جمر الحشى والماء لج دموي  
ونسيت أنني قد فقدت ضلوعي

ومما قلته أنا أيام شبيبتي، وفيه إطناب ظاهر وتفصيل، قصيدة عنوانها «ملتقى حبيبين، بين رغبة ورهبة» وهذه أوائلها:

أنته بليل وهي خافقة القلب  
تسير بخطو هادئ متقارب  
إذا أبصرت شيئاً جماداً تخاله  
فلما التقته أطرقت لاضطرابها  
فما زادها الإطراف إلا ملاحة  
وإطراقة المحبوب خدعة ذلة  
تصوب عينيها إلى الأرض والذى  
لحاظ مراضن تسرب المرء لبه

محيرة بين الطهارة والحب  
كأن نسيم الليل يشعر بالذنب  
يراقبها حتى تذوب من الرعب  
وقد أوشكـت أنْ تشتكـي لذة القرب  
وما كان إلا فتنـة المغرـم الصـبـ  
وفي طـيـها آـيـ المـعـزـةـ وـالـعـجـبـ  
يـحـسـ بـهـ تـصـوـيـبـ سـهـمـ إـلـىـ الـقـلـبـ  
ويـخـفـرـهاـ طـهـرـ يـرـدـ إـلـىـ الـلـبـ

إلى أنْ أقول:

وحصر عليه القلب يحنو لأنـه  
وقد رشيق تشتـهي النفس شـربـهـ  
وكان الدـجـىـ في آخرـ العـمـرـ وـالـصـباـ

فـقـيرـ مـقـيمـ بـيـنـ جـارـيـنـ فـيـ خـصـبـ  
لـوـ اـنـ غـصـونـ أـلـبـانـ تـصـلـحـ لـشـرـبـ  
مـنـ الشـرـقـ تـسـرـيـ بـالـسـلـامـ إـلـىـ الـغـربـ

ووجه، أحاطا بالحواجب والهدب  
وقام هدير النهر في ساحل رحب  
فلله من شكوى ولله من عتب  
وأمثال هذا الشرح ليست من الكتب  
وأنطف من مسرى النسيم على العشب  
فإن تحسبا ذنبا فلا بأس في الذنب  
وضوء هلال حول ظل كجبهة  
وقد رقصت أغصان غاب وصفقت  
هناك ابتغى الألفان تبريد غلة  
أفاصا كما شاء بشرح صبابة  
وأمثال هذا الشرح أشهى من الكرى  
وما كان إلّا رقة طي عفة

وأمّا الحكم والأمثال فقد اشتهرت لغتنا بها، وامتازت على وجه خاص، وفاضت  
بهذا المطلب كتبها في كل عصر من عصورها، والحكم أشرف أبواب الشعر والنثر؛ لأنها  
الصق بالعقل والفهم من كل الأبواب. والأمثال عند كل أمّة تُحسب عصارة عقولها، ومرأة  
أدبها، والزبدة الصافية من تجاربها في هذه الحياة. وهي عندنا قسمان: قسم مأخوذ  
عن طريق المجاز والتتشبيه، غير منتزع من حديث مدون، ولا ناشئ عن حادث ماضٍ  
نحو: «قبل الرماية تملأ الكنائن» – «كنت كرعايا فصرت ذراعاً» وقسم مبنيٌ على حديث  
أو حادث نحو: «في كل واد أثر من ثعلبة» – «على أهلها جنت براقيش».

ومن عيون الحكم والأمثال قولهم:

لا جبایة إلّا بحمایة – لا طاعة لخلوق في معصية الخالق – إذا لم يكن ما تريد  
فأرد ما يكون – إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة – من لا يسكت على  
كلمة يسمع كلمات – من لا يصبر عن أكلة فاته أكلات – حُسْن في كل عين ماتود –  
فليتك لم تزني ولم تتتصدق – كمستبضع التمر إلى هَجَر – دواء الشق أن يحاصل –  
على الباقي تدور الدوائر – العجب كل العجب بين جمادى ورجب – سبق السيف العذل  
– ربما تمكّن الباطل من جولة أو جولتين، ثم لا بد للحق أن يصرعه ويدمّجه في جبهته  
– مُكره أخوك لا بطل – اصنع ما يجب ولا تنظر إلى ما يحدث – الحقيقة أن تعلم لا  
أن تقال – كأكل رطب مُشان بعة الورشان – أي: كالصياد الذي يأكل البلح داخلًا  
بين غراسه، ويحتاج أنه يبحث عن الطائر الصغير المسمى مشانًا لكي يصطاده، ومشان  
اسم بلدة – الأمور مرهونة بأوقاتها.

النفس لا ترجع عن غيها	ما لم يكن منها لها زاجر
إذا لم يعن قول النصيح قبولُ	فإن معاريض الكلام فضول
إن اختفى ما في الزمان الآتي	فكس على الماضي من الأوقات
إنَّ الحياة كما يهوى مكيفها	عسر لمن كدها يسر لمن لانا <sup>١</sup>
إنَّ الكرام إذا ما أيسروا ذكروا	من كان يألفهم في المنزل الخشن <sup>٢</sup>
إذا كنت لا تدرى فتلك مصيبة	وإنْ كنت تدري فال المصيبة أعظم
إنَّ الأمير هو الذي	ييقي أميرًا بعد عزله
إن زال سلطان الولا	ية لم يزل سلطان فضله
الليالي من الزمان حبالي	مثقلات يلدن كل عجيبة

<sup>١</sup> المؤلف.

<sup>٢</sup> أبو تمام.

ألا إن من لم يكن زارعاً دعوه فما هو من حصد<sup>٣</sup>

إذا ما طلبت الأمر من غير بابه  
إذا أنت لم تعلم طببيك كل ما  
ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدى  
يسوءك أبعدت الدواء عن السقمِ

إذا أسرجت بالديباج بغلًا  
فما أبقيت للفرس الجوابُ

إذا ما أهان امرؤ نفسه  
فلا أكرم الله من يكرمه

إذا تم شيء بدا نقصه  
توقع زوالاً إذا قيل تم

إذا أعجبتك خصال امرئ  
فليس على الفضل والمكرمات  
فگنْهُ يكنْ منك ما يعجبك  
إذا جئتها حاجب يحجبك  
أنا الغريق فما خوفي من البل  
الموت أرَوْحُ لي مما أُراقبه

### المتنبي

أوردها سعد وسعد مختبل  
ما هكذا يا سعد تورد الإبل

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ  
وما ذاك من لؤم به غير أنه  
نصيب ولا حظ تمنى زوالها  
يرجّي سواها فهو يهوى انتقالها

<sup>٣</sup> المؤلف.

<sup>٤</sup> المؤلف.

ويوشك أن يكون لها ضرام يكون وقودها جثث وهام وإنَّ الحرب أولها كلام	أرى خلل الرماد وميض نار إذا لم تطفها عقلاء قوم فإن النار بالعودين تذكى
بكللِه أناخ بآخرينا سيلقى الشامتون كما لقينا	إذا ما الدهر شدَّ على أناس فقل للشامتين بنا: أفيقوا
فما عزه إلا خيالٌ يخالبه <sup>٥</sup>	إذا النفس لم تعطف على المرء ودها
ولا بأس أنْ تعطيه شيئاً من المزح بمقدار ما تعطيه الطعام من الملح	أفد طبعك المكدود بالهم راحة ولكن إذا أعطيته المزح فليكن
إلى كل ما فيه عليك مقال	إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
وذو نسب في الهالكين عريق <sup>٦</sup> له عن عدو في ثياب صديق مفيدة للمرء أي مفسدة <sup>٧</sup>	ألا كل حي هالك وابن هالك إذا امتحن الدنيا لبيبٍ تكشفتْ إنَّ الشباب والفراغ والجده
فكل رداء يرتديه جميلُ <sup>٨</sup>	إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

<sup>٥</sup> المؤلف.

<sup>٦</sup> أبو نواس.

<sup>٧</sup> الفراغ هو البطالة والجده هي الغنى.

<sup>٨</sup> السموأل بن عادياء.

فليس إلى حسن الثناء سبيل  
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها

أفاعي رمال لا تقصّر عن لسعٍ  
ننزلت بواحدٍ منهمُ غير ذي زرعٍ<sup>٩</sup>  
ألا إخوانِي الذين عهّدْتَهم  
ظننت بهم خيراً فلما بلوتْهُم

رفعت يدي ونفسي تشهي  
إذا كان الكلاب ولغن فيه  
إذا وقع الذباب على طعام  
وتجنب الأسودُ ورواد ماء

إلى التراضي وتَبَثَّ سورة الغضب<sup>١٠</sup>.  
فائف القذى عنه واشرب صفوه تصب  
إِنْ ساء بعضكم بعضاً فمرجعكم  
وكل جدول ماء يعتريه قذى

رأيت نعم الدنيا تحاكي النوائب<sup>١١</sup>.  
فلا تكُنْ فيه غاضباً أو معاتباً  
إذا أنسج الدهر النفوس تجارباً  
وليس دواء الدهر إِلَّا احتقاره

تبين فيه تفريطُ الطبيب<sup>١٢</sup>  
إذا ما الجرح رَمَّ على فساد

فما المال إِلَّا مثل قص الأظافر  
إذا سلمت روس الرجال من الأذى

<sup>٩</sup> بلوتْهُم؛ أي: اختبرتهم.

<sup>١٠</sup> المؤلف.

<sup>١١</sup> المؤلف.

<sup>١٢</sup> تفريط؛ أي: تقصير.

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته  
على طرف الهجران إنْ كان يعقلُ

توهمتْ أنها صارتْ شواهينا<sup>١٣</sup>  
وما درتْ أنه قد كان تهويينا  
كلما غنتْ فتاةً رقصاءً<sup>١٤</sup>

إنَّ الزرازير لَمَّا قام قائمها  
ظلتْ تأني الزيارة الشهب عن جزء  
أي خير وصلاح في فتنى

أعُلُّ النفس بالأمال أرقبها  
ما أضيق العيش لولا فسحة لأمل<sup>١٥</sup>

وأخذ للصديق من الشقيق  
فيخصب عندي والمكان جديب  
ولكنما وجه الكريـم خصـبـ<sup>١٦</sup>

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله  
وما الخصب للأضيف أنْ تُكثر القرى

(ب)

بنو الدهر جاءتهمْ أحاديثُ جمة  
بذا قضت الأيام ما بين أهلها

فما صدقوا إلَّا حديث ابن دينار  
مصالـبـ قوم عند قوم فوائدـ<sup>١٧</sup>

<sup>١٣</sup> صفي الدين الحلي.

<sup>١٤</sup> إبراهيم الحوراني.

<sup>١٥</sup> الطفراني.

<sup>١٦</sup> المتتبـيـ.

١٧ تخالف غمداً وَمَا اخْتَلَفَ النَّصْلُ  
بِحَقٍّ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ السُّبُلُ  
بذاك نرى الوحي السماوي عمنا  
سبيلان من عيسى وأحمد مهدا

بنـي إـنـ البرـ شيءـ هـينـ  
وجه طـلـيقـ وـكـلامـ لـينـ

(ت)

تكلـمـ وـسـدـنـ ماـ اـسـتـطـعـتـ فـإـنـماـ  
فـصـمـتـكـ عـنـ غـيرـ السـدـادـ سـدـادـ  
فـإـنـ لمـ تـجـدـ قـوـلـاـ سـدـيـداـ تـقولـهـ

(ث)

ثوبـ الـرـيـاءـ يـشـفـ عـماـ تـحـتـهـ  
فـإـذـاـ التـحـفـتـ بـهـ فـإـنـكـ عـارـ

ثلاثـةـ يـجـهـلـ مـقـدـارـهـاـ  
الـأـمـنـ وـالـصـحـةـ وـالـقـوـتـ<sup>١٨</sup>

(ح)

حـبـ التـنـاهـيـ غـلـطـ  
خـيرـ الـأـمـورـ الـوـسـطـ

١٧ المؤلف.

١٨ مـقـدـارـهـاـ؛ـ أـيـ:ـ قـدـرـهـاـ،ـ وـهـوـ قـيـمـتـهـاـ.

الأدب العربي في ما له

(خ)

خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به      في طلعة البدر ما يغريك عن زحل

(ر)

ربما تجزع النفوس من الأمر      له فرجة كحل العقال

(س)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً  
ويأتيك بالأخبار من لم تزود<sup>١٩</sup>  
يمينك فانظر أي كف تبدل  
سُقطْع في الدنيا إذا ما قطعتني

(ص)

صديق عدوي داخل في عداوتي      وإنني لمنْ وَدَ الصديق ودودُ

صلى وصام لأمر كان يطلبه      لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

---

<sup>١٩</sup>. طرفة بن العبد.

(ض)

ضاقت فلما استحکمت حلقاتها      فرجت وکنت أظنها لا تفرج

(ع)

على المرء أن يسعى إلى الخير جده      وليس عليه أن تتم المقاصد

علي نحت القوافي من معادنها      وما على إذا لم تفهم البقر<sup>٢٠</sup>

(غ)

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي      نوح باك ولا ترثُم شاد<sup>٢١</sup>

(ف)

فالناس للناس والدنيا مكافأة      والخير يُصنع والأخبار تنتقل<sup>٢٢</sup>

---

<sup>٢٠</sup> المتنبي.

<sup>٢١</sup> أبو العلاء المعري، غير مجد؛ أي: غير نافع.

<sup>٢٢</sup> بهاء الدين زهير.

فيما دارها بالخيف إنَّ مزارها  
٢٣ قريب ولكن دون ذلك أهواه

فما حسن أنْ يعذر المرء نفسه  
وليس له من سائر الناس عاذر

فحَتَّام تُنَهَى ولا تنتهي  
وتسمع وعظًا ولا تسمع  
تسن الحديد ولا تقطع

فإما أنْ تكون أخي بصدق  
فأعرف منك غَيْرِي مِنْ سمياني  
عدُوا أتقيه ويتقيني  
وإلاً فانتبذني واتخذني

فأنت أخي ما لم تكن لي حاجة  
فإنَّ عَرَضْتُ أَيْقَنتُ أنْ لا أَخَا لِي  
ونحن إذا متنا أشد تغانيا  
كلانا غني عن أخيه حياته

فيما مُوقِدًا نارًا لغيرك ضَوْءُها  
ويَا حاطبًا في جبل غيرك تحطب

(ق)

قد قيل ما قيل إنْ صدقًا وإنْ كذبا  
فما احتيالك في شيء وقد قيلا

قالوا كبرت عن الصبي  
وقطعت تلك الناحية<sup>٢٤</sup>

<sup>٢٣</sup> أبو العلاء المعري.

<sup>٢٤</sup> بهاء الدين زهير.

صدقوا كبرت وإنما تلك الشمائل باقية

قالوا الكهولة هَدَّتْ كل ما كانا  
قلت الكهولة لا تمحو سجايانا<sup>٢٥</sup>  
في فجر أيامها حسًّا ووجدانا جسم يشيخ ونفس مثل ما عهدت

قالت الضفدع قولاً  
فسرَّته العلماء  
في فمي ماء وهل ينط

قصُّر الأمال في الدنيا تَفُزْ  
فدليل العقل تقصير الأمل<sup>٢٦</sup>

المتنبي

(ك)

كذا الآدمي سعادته فيـ  
ـه ما ضل عنها سوى الأغبياء<sup>٢٧</sup>

كل من تلقاه يشكو دهره  
ليت شعري هذه الدنيا لمن  
غير أن الشباك مختلفات كل من في الوجود يطلب صيدا

<sup>٢٥</sup> المؤلف.

<sup>٢٦</sup> ابن الوردي.

<sup>٢٧</sup> المؤلف.

كل ما ترجيه سهلٌ ولكن عثرات الآمال ليست بسهلة<sup>٢٨</sup>

كلما أطلع الزمان قناة رَكَبَ المرء في القناة سنانا

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

كأنك من كل الطياع مُرَكَّبٌ فأنت إلى كل القلوب حبيب

(ل)

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال<sup>٢٩</sup>

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلَّا صورة اللحم والدم<sup>٣٠</sup>

لا يعرف الشوق إلَّا من يكابده ولا الصباية إلَّا من يعانيها

<sup>٢٨</sup> ناصف اليازجي.

<sup>٢٩</sup> المنبي.

<sup>٣٠</sup> زهير بن أبي سلمى.

٣١ آفة النصح أن يكون جدالاً لك نصحي وما عليك جدالي

٣٢ حسن الذي يصيبه لم يصبه لو فكر العاشق في منتهى

ما غالب الأيام إلا من رضي لكل حال مدة وتنقضى

٣٣ مثل الشفيع الذي يأتيك عرياناً ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

ولكن لا حياة لمن تنادي  
ولكن أنت تتفاخ في رماد لقد أسمعت لو ناديت حياً  
ونار إن نفخت بها أضاءات

٣٤ بآيات قرآن وإنجيل نصراني  
ركائبه فالحب ديني وإيماني  
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة  
أدين بدين الحب أنى توجهت

واغلظ عليه يجي طوعاً وإذعاناً  
 ولو صببت عليه البحر ما لانا  
لا تلطفن بذى لؤم فتطغى  
إن الحديد تذيب النار قسوتها

إنما الميت ميت الأحياء  
ليس من مات فاستراح بميت

٣١ أحمد شوقي.

٣٢ المنبي.

٣٣ الفرزدق.

٣٤ محبي الدين بن العربي.

لِيْسَ الْغَرِيبُ الَّذِي تَنَأَىْ الدِيَارَ بِهِ  
إِنَّ الْغَرِيبَ قَرِيبٌ غَيْرَ مُودُودٌ

لَعْلَ عَتْبَكَ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبَهُ  
وَرِبِّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَادُ بِالْعَلَلِ<sup>٣٥</sup>

لَا تَنْهَ عَنْ خَلَقٍ وَتَأْتِي مَثْلَهُ  
عَارٌ عَلَيْكِ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمًا<sup>٣٦</sup>

لَا تَقْطَعْنُ ذَنَبَ الْأَفْعَى وَتَرْسِلُهَا  
إِنْ كُنْتَ شَهَمًا فَأَتَبْعِ رَأْسَهَا الذِنْبَا

لَا أَذْوَدُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ  
قَدْ بَلَوْتَ الْمَرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

لَا تَطْمِعُوا أَنْ تَهْبِنُونَا وَنَكْرِمُكُمْ  
وَأَنْ نَكْفُ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتَؤْذُنَا

لَوْ كُلَّ كَلْبٍ عَوِيْ أَلْقَمَتِهِ حِجَّرًا  
لَأَصْبَحَ الصَّخْرَ مُثْقَالًا بِدِينَارٍ

لَا يَخْدُعُنَكَ مِنْ عَدُوِ دَمْعَهُ  
وَارِحَمْ شَبَابَكَ مِنْ عَدُوِ تَرْحِمَ<sup>٣٧</sup>  
لَا يَسْلِمُ الشَّرْفَ الرَّفِيعَ مِنْ الْأَذَى  
حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّم

لِأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتَمَّ صِدْرُوهُ  
وَلِيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتَمَّ عَوَاقِبَهُ

أَبُو تَمَامٍ

<sup>٣٥</sup> المتنبي.

<sup>٣٦</sup> أبو الأسود الدؤلي.

<sup>٣٧</sup> المتنبي.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم      ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لألفينك بعد الموت تندبني      وفي حياتي ما زودتني زادي

لطف الله بنا      أَنَّ الخطايا لا تفوح  
إذن المستور منا      بين جنبيه فضوح

أبو العتاهية

(م)

ما طار طير وارتفع      إِلَّا كما طار وقعْ

مقالة السوء إلى أهلها      أسرع من منحدر سائل<sup>٣٨</sup>  
ومن دعا الناس إلى ربه      ذموه بالحق وبالباطل

ما العيش إِلَّا أَنْ تحب      وأنْ يحبك من تحبه

من كان يخلق ما يقو      ل فحيلتي فيه قليله

متى تك في صديق أو عدو      تخبرك الوجوه عن القلوب

---

<sup>٣٨</sup> إلى أهلها: أي: إلى مستحقها.

ما الناس إلّا عاملان فعامل  
قد مات من عطش وآخر يغرق<sup>٣٩</sup>

من راقب الناس مات غمّا  
وفاز باللذة الجسور

متى تر الكلب في أيام دولته  
فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرد

ناصيف اليازجي

ما أنت إلّا كلحم ميت  
دعا إلى أكله اضطرارُ

من لم يعدها إذا مرضنا  
إنْ مات لم نشهد الجنائزه<sup>٤٠</sup>

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها  
ولا تجود يدُ إلّا بما تجد

من قال لا أغلط في أمر جرى  
فإنها أول غلطة ترى

ناصيف اليازجي

ما حوى العلم جميعاً أحد  
إنما العلم كبحر زاخر  
لا ولو مارسه ألف سنة  
فخذوا من كل شيء أحسنْ

<sup>٣٩</sup> صالح بن عبد القدس.

<sup>٤٠</sup> الصاحب بن عباد.

من عف خف على الصديق لقاوه وأخو الحوائج وجهه مسئوم<sup>٤١</sup>

(ن)

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي والكفر مخبأة لنفس المنعم<sup>٤٢</sup>

نرى الفتى ينكر فضل الفتى في عيشه حتى إذا ما ذهب يكتبها عنه بماء الذهب

نقاء الهوا ونقاء الزرو ع يعدي النفوس فتجني النساء<sup>٤٣</sup>

(و)

وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما أنَّ عين البغض تبدي المساوايا

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام<sup>٤٤</sup>

<sup>٤١</sup> أبو الأسود الدؤلي.

<sup>٤٢</sup> عنترة العبسي، الكفر يراد به هنا كفر النعمة – أي: إنكار المعروف.

<sup>٤٣</sup> المؤلف.

<sup>٤٤</sup> المتتبلي خبا – أي: مكرًا.

ولا بُدَّ من شكوى إلى ذي مروءة  
يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع

وإنَّ الحق مقطوعه ثلث  
يمين أو شهود أو جلاءٍ<sup>٤٠</sup>

يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم<sup>٤١</sup>  
وإن خالها تخفي على الناس تُعلم  
وممن لا يزد عن حوضه بسلامه  
ومهما يكن عند امرئ من خليقة

وإذا غلا شيء على تركته  
فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وإنما رجل الدنيا وواحدها  
من لا يعول في الدنيا على رجل

الطغرائي

ولم أرَ في عيوب الناس عيًّا  
كنقص القادرين على التمام

المتنبي

وإذا طلبت إلى كريم حاجة  
فلقاوه يكفيك والتسليم<sup>٤٢</sup>  
وإذا طلبت إلى لئيم حاجة  
فأَلْحَّ في رفق وأنت مقيم<sup>٤٣</sup>

<sup>٤٥</sup> زهير ابن أبي سلمى. جلاء أي: دليل أو برهان.

<sup>٤٦</sup> زهير ابن أبي سلمى.

<sup>٤٧</sup> أبو الأسود الدؤلي.

ومن لم يُنلَّ النفس في طلب العلى      قليلاً يعش عمرًا طويلاً أخا ذل

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة      من جاهه فكأنها من ماله

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره      تعددت الأسباب والموت واحد

وما قَلَّ مَنْ كانت قلوبُ وراءه      ولا ذل عبد الحق أين يسير<sup>٤٨</sup>

وهل ينفع المدفونَ تعميرُ قبره      إذا كان فيه جسمه يتهدم

وإذا صفا لك من زمانك واحدُ  
وإذا تالفت القلوبُ على الهوى      فهو المراد فِعْشَ بذاك الواحد  
فالناسُ تضرب في حديد بارد

وقد يَتَرَيَّأً بالهوى غير أهله      ويستصحب الإنسان من لا يشاكله

ولرحمة المتوجعين مرارةُ  
ولربما كذب امرؤ بكلامه      في القلب مثل شماتة الأعداء

وإذا نزلت بدار قوم دَارِهم<sup>٤٨</sup>      وسكته وبكائه وبضحكه

فلهم عليك تعزُّ الأوطان      فلهم عليك تعزُّ الأوطان

سوى فرقة الأحباب هينَّ الخطب وكل مصيبة الزمان وجدتها

يُجدها ولا يسلم له الدهر صاحب ومن يتبع جاهدًا كل عثرة وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب ومن لا يغمض عينه عن صديقه

عن جهله وخطاب من لا يفهم<sup>٤٩</sup> ومن البلية عذل من لا يرعوي ومن الصداقة ما يضر ويؤلم ومن العداوة ما ينالك نفعه

إذا احتاج النهار إلى دليل<sup>٥٠</sup> وليس يصح في الأذهان شيء

كصون اللسان عن النطق بِهْ وأذنك صُنْ عن سماع القبيح شريكُ لقاتلِه فانتبه فإنك عند سماع القبيح

ما دل أنك في الميعاد متهم وفي اليمين على ما أنت فاعله

المتنبي

عدوا له ما من صداقته بُدُّ ومن نك الدنيا على الحر أَنْ يرى

المتنبي

<sup>٤٩</sup> المتنبي.  
<sup>٥٠</sup> المتنبي.

وطول مقام المرأة في الحي مخلق  
إلهي رأيت الشمس زيدت محبته

لديجاجتيه فاغترب تتجدد<sup>١</sup>  
إلى الناس أنْ ليست عليهم بسرمد

ولكن ألق دلوك في الدلاء  
تجيء بحماءة وقليل ماء<sup>٢</sup>

وما طلب المعيشة بالتنمي  
تجيء بملئها طوراً وطوراً

يتيه لديها جاهل وخبر<sup>٣</sup>  
ولا يستوي لب لها وقشور

وما مبحث الأديان إلَّا مفاوز  
وما لبها إلَّا المكارم والتقى

مارب قضاها الشباب هنالكا  
عهود الصبي فيها فحَنُوا لذلِكَا

وحبب أوطان الرجال إلَيْهِمْ  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم<sup>٤</sup>

جنى عذرها ذنبًا من الذنب أعظمها

وكم مذنب لما أتى باعتذاره

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا<sup>٥</sup>

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

مشوق حيث يلقى العاشقينا<sup>٦</sup>

وذو الشوق القديم وإن تَسَلَّى

<sup>١</sup> أبو تمام. مقام بضم الميم أي: إقامة، مخلق أي: مُبْلِ، بسرمد أي: بدائمة.

<sup>٢</sup> حمأة، أي: وحل.

<sup>٣</sup> المؤلف.

<sup>٤</sup> المنتبى.

<sup>٥</sup> عمر بن أبي ربيعة.

وَلَا أَصْطَفِي مِنْ كَانَ فَضْلِي عُدُوهُ  
وَإِنْ جَادَ لِي مِنْ بَعْدِ بَالِودٍ أَجْمَعًا<sup>٥٦</sup>

وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبِ  
مَبَادِيهِ إِلَّا سَاعَنِي فِي الْعَوَاقِبِ  
وَزَهَدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ  
فَلَمْ تَرَنِي الْأَيَّامُ خَلَا تَرْوِقَنِي

إِذَا كَانَ الْبَنَاءُ عَلَى فَسَادٍ  
وَإِنَّ الْجَرْحَ يَنْغُرُ بَعْدَ حِينٍ

لَا تَصْطَلِي مَا لَمْ تَثْرِهِ الْأَزْنَدُ<sup>٥٧</sup>  
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مُخْبُوَةٌ

وَلَكُنْهُ هُمْ وَثَانٌ وَثَالِثٌ  
وَلَوْ كَانَ هُمْ وَاحِدٌ لَاحْتَمَلَتْهُ

مَقَايِيسُ وَأَشْبَاهُ  
دَلِيلُ حِينٍ يَلْقَاهُ  
وَفِي النَّاسِ مِنَ النَّاسِ  
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ

كَحَالِ الْمَسْكِ لَا يَخْلُو مِنَ الْعَبْقِ  
وَصَاحِبُ الْحُبِّ لَا تَخْفِي دَلَائِلُهُ

وَلَكُنْهُ شَيْءٌ بِهِ النَّفْسُ تَعْلُقٌ  
وَمَا الْحُبُّ مِنْ حَسْنٍ وَلَا وَمِنْ مَلَاحَةٍ

تَصَيَّدَهُ الضَّرَغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَ  
وَمَنْ يَجْعَلُ الضَّرَغَامَ فِي الصَّيْدِ بَازِهُ

المتنبي

<sup>٥٦</sup> إبراهيم اليازجي.

<sup>٥٧</sup> علي بن الجهم.

(ي)

هلا لنفسك كان ذا التعليم<sup>٥٨</sup>  
كيمما يصح به وأنت سقيم  
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

يا أيها الرجل المعلم غيره  
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى  
فابداً بنفسك فانهها عن غيها

فإذا جاء الشتاء أنكره<sup>٥٩</sup>  
قتل الإنسان ما أكفره

يشتهي الإنسان في الصيف الشتا  
ليس يرضي المرأة حال واحدُ

ويغمره الموج في الساحل

يشمر للج عن ساقه

لنحن أغلظُ أكباداً من الإبل

يبكي علينا وما نبكي على أحد

وطلبنا فابرق بأرضك وارعد

يا شد ما بعدت عليك ديارنا

وتسلم أعراضُ لنا وعقولَ<sup>٦٠</sup>

يهون علينا أن تُصاب جسومنا

حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن<sup>٦١</sup>

يقضى على المرأة في أيام محتته

<sup>٥٨</sup> أبو الأسود الدؤلي.

<sup>٥٩</sup> أمرأ القيس الكندي، أنكره، أي: استقبحه.

<sup>٦٠</sup> المتنبي.

<sup>٦١</sup> المتنبي.

يَزِينُ الْحُبُّ مَا لَا حُسْنٌ فِيهِ  
كذاك الحسن حب وارتضاء  
لُجُّنَ الْكُلُّ وَاشْتَمَلَ الْبَلَاءُ<sup>٦٢</sup>  
ولو حستت بعين الكل ليلي

ومن هذا الباب قلت في جملة قصيدة ناصحاً سواد الشعب عندنا بتجنب المسائل  
السياسية:

وَاقِ إِيْرَادًا وَإِصْدَارًا  
مَشْحُونَة نَكَدًا وَأَوْزَارًا  
وَنَفْصُلُ الْفَلَاح نَجَارًا  
وَيَصِيبُنَا تُخْرِيبَهَا الدَّارَا  
وَلِيَ السِّيَاسَةَ أَهْلُهَا فَهُمُ السَّـ  
وَعَلَيْهِمْ تُلْقَى تَبَاعِثُهَا  
أَنَّى نَشَاطِرُهُم مَخَاطِرُهَا  
فَتَفَوَّتُنَا لِذَاتِ سُلْطَتِهِمْ

وأمّا مظاهر الحماسة والنخوة والأريحية، فمن أمثلتها ما رواه أبو تمام في ديوان  
الحماسة لجعفر بن علبة الحارثي، وكان مسجوناً مهدداً بحكم الموت، فرأى في المنام  
કأن زوجته زارتْه هناك، فلما أفاق أنسد أبياتاً منها قوله:

إِلَيَّ وَبَابُ السِّجْنِ دُونِي مَغْلُقُ  
فَلَمَا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَزَهَّقُ  
لِشَيْءٍ وَلَا أَنِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُقُ  
كَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْكَ إِذْ أَنَا مَطْلُقُ  
عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنَّى تَخَلَّصَتْ  
أَلْمَتْ فَحَيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَوَدَعَتْ  
فَلَا تَحْسِبِي أَنِي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ  
وَلَكِنْ عَرَتْنِي مِنْ هَوَاكِ صِبَابَةُ

وما رواه أبو تمام لقطري بن الفجاعة أحد أبطال الخوارج وزعمائهم يخاطب  
نفسه ويعاتبها، ويحثها على البسالة والإقدام:

مِنَ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُمُ لَا تَرْاعِي  
عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطِعِي  
فَمَا نِيلُ الْخَلْوَةِ بِمُسْتَطِاعٍ  
أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا  
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بِقَاءَ يَوْمٍ  
فَصَبَرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبَرَا

٦٢ ناصيف اليازجي.

وأحسن من ذلك قول القائل:

قولُ الْكَمَاةِ أَلَا أَيْنَ الْمَحَامُونَ  
مِنْ فَارِسٍ خَالِهِمْ إِيَاهُ يَعْنُونَا  
إِنِّي لَمْنَ مُعْشَرٌ أَفْنَى أَوَائِلَهُمْ  
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنْ وَاحِدٍ وَدَعَوْا

وقول السموأل بن عadiاء:

كَهَامُ وَلَا فِينَا يَعْدُ بَخِيلُ  
وَلَا يَنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ  
وَلَا ذَمَنًا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ  
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فَلَوْلُ  
فَتَغْمُدْ حَتَّى يَسْتَبَاحْ قَتِيلُ  
مِنْيَعْ يَرِدُ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ  
إِلَى النَّجْمِ فَرْعَ لَيْنَالْ طَوِيلُ  
فَلَيْسَ سَوَاءَ عَالَمٌ وَجَهْوَلُ  
فَنَحْنُ كَمَاءَ الْمَزْنَ مَا فِي نِصَابِنَا  
وَنَنْكِرُ إِنْ شَيْئَنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ  
وَمَا حَمَدَتْ نَارُ لَنَا دُوقَ طَارِقَ  
وَأَسِيافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبَ  
مَعْوِدَةٌ إِنْ لَا تُسَلَّ نَصَالِهَا  
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مِنْ نَجِيرِهِ  
رَسَا أَصْلَهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ  
سَلِيٌّ إِنْ جَهَلْتَ النَّاسَ عَنَا وَعَنْهُمْ

وقول الأمير أبي فراس الحمداني:

لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ  
وَمِنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلِهِ الْمَهْرُ  
وَنَحْنُ أَنَّاسٌ لَا تَوْسِطُ عَنْدَنَا  
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفْوُسُنَا

وقول الإمام الشافعي:

بِقُلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرًا  
نَفْوُسُ الْوَرَى كَانَتْ أَجْلُ وَأَكْبَرًا  
عَلَيَّ ثَيَابٌ لَوْ تُبَاعُ جَمِيعُهَا  
وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ تُقَاسُ بِفَضْلِهَا

وقول الطفراي وكان وزيراً خطيراً، ثم عزل وأصابته أيام شدة ومحنة:

وَرَاءَ خَطْوَيِّ إِذْ أَمْشَى عَلَى مَهْلٍ  
لِي أَسْوَةَ بَانْحَاطَ الشَّمْسَ عَنْ زَحْلٍ  
تَقْدَمْتَنِي أَنَّاسٌ كَانُوا شَوْطَهُمْ  
وَإِنْ عَلَانِي مِنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ

وربما ظهر أثر الحمية وعزّة النفس في الموضع التي يُظن أنها بعيدة عنها، كما قال رجل يُشير إلى فاقته، وإلى إسعاف أحد إخوانه له في مكافحة الفاقة حتى أزالها:

رأى خلّي من حيث يخفى مكانها فكانت قد عينيه حتى تجلت

ففي قوله: «من حيث يخفى مكانها» استدراكٌ جميل يسميه البديعيون تتميماً أو احتراساً، فالذى يريد بخفاء مكان خلّته — أي: مكان فقره — أنه لم يكن يشكوا حاجته إلى أحد، ولا يظهر عليه الفقر ببادرة لسان، ولا مظاهره. وهذا منتهى المروءة والإباء، ولا يقل عن ذلك إظهار الإباء في مواقف الصباية والغرام، كما قال كثير عزة يشعر حبيبته أنها إذا اشتطرت في الجور عليه تَحَمَّل مصيبة الهجر والقطيعة واستغنى عنها:

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وكما قال أديب حلب المشهور فرنسيس مراس في أحد مطالعه:

أذوب لا والله لست أذوب إن قلت هجراً قلت ذا المطلوب

ومن أمثلة الحمية والاعتداد بالنفس قول المتنبي:

ضررت بسيف يغلق الهم معمدا  
فزيين معروضاً وراغ مسددا  
إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدا  
بشعري أتاك المادحون مرددا  
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى  
إذا شد زندي حسن رأيك فيهم  
وما أنا إلا سمهري حملته  
وما الشعر إلا من رواة قصائدي  
أجزني إذا أنشدت شعرًا فإنما  
ودع كل صوت غير صوتي فإبني

ويدخل في هذا السلك قول أبي الحسن التهامي، إذا لم تَخْنِي الذكرة:

ولا وفائي ولا ديني ولا كرمي  
والشيب في الشعر غير الشيب في الهم  
ما شاب عزمي ولا حزمي ولا أبي  
 وإنما اعتاض رأسى غير صبغته

الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

وقول الطغرائي:

وراء خطوئِي إِذْ أَمْشَى عَلَى مَهْلٍ  
مِنْ قَبْلِهِ فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الْأَجْلِ  
لِي أَسْوَةً بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زَحْلٍ  
تَقَدَّمَتْنِي أَنْاسٌ كَانَ شَوْطَهُمْ  
هَذَا جَزَاءُ امْرَأٍ أَقْرَانَهُ دَرْجَوَا  
وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ

وقول ابن سناء الملك:

عَلَى الرَّغْمِ مِنِّي أَنْ أَرَى لَكَ سِيداً  
رَأَيْتُ الْهَدَى أَنْ لَا أَمْلِي إِلَى الْهَدَى  
لَحَدَثْتُ نَفْسِي أَنْ أَمْدَّ لَهُ يَدًا  
وَإِنَّكَ عَبْدِي يَا زَمَانَ وَإِنَّنِي  
وَلَوْ كَانَ إِدْرَاكُ الْهُدَى بِتَذَلُّلٍ  
وَلَوْ مَدَّ نَحْوِي حَادِثُ الدَّهْرِ كَفَهُ

وقول الآخر:

أَعْزُّ وَإِنِّي النَّائِبَاتِ تَهُونُ  
وَبِتُّ أَرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ  
تَنَكِرُ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرِ أَنِّي  
فَبَاتِ يَرِينِي الْخَطْبَ كَيْفَ اعْتَدَأَهُ

وقول غيره:

أَنَّنِي لِرَبِّ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُضُ  
وَإِذَا تَرَدَّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ  
وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتَيْنِ أَرِيهِمُ  
وَالنَّفْسِ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا

زعم الأصممي أنَّ البيت الثاني من هذين البيتين هو خير ما نطق به العرب في  
الحكم، ومن قبيل ما نحن فيه قول القائل:

ضمنتْ ضمائِرَهُمْ مِنَ الْأَكْدَارِ  
فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبَهُمْ فِي نَارٍ  
إِنِّي لِأَرْحَمِ حَاسِدَيْ لِفَرْطِ مَا  
نَظَرُوا صَنِيعُ اللَّهِ بِي فَعَيْوَنَهُمْ

وأمّا المراثي فهي من أحسن ما أجاده القراءُ العربيَّةُ، وهذه الإجادَةُ الممتازَةُ الدالَّةُ على الوفاءِ وشرفِ المبدأِ عهدَتْ في أدبِنا منذُ أقدمِ عصورِه حتَّى سُئلَ أعرابِيًّا: ما بال مراثيكم خيرُ أقوالِكم؟ فأجابَ: لأنَّا لا ننطقُ بها إلَّا وقلوبُنا محترقةٌ. ومن عيونِ المراثي مرثيةُ أبي تمامَ في محمدِ الطوسيِّ التي يقولُ في مطلعِها:

فليس لعينٍ لم يفضِّلَ مأواها عذرٌ  
وأصبحَ في شغلِ عن السفرِ السفرِ

كذا فليجلِّ الخطبَ وليفدحِ الأمرَ  
توفيتِ الآمالُ بعدَ محمدٍ

إلى أنْ يقولَ:

تقوم مقام النصر إنْ فاتَه النصر  
من الضربِ واعتلَتْ عليه القنا السمر  
إليه الحفاظُ الصعبُ والخلقُ الوعرُ  
هو الكفرُ يومُ الروعِ أو دونِه الكفرُ  
وقالَ لها: من تحتَ أخمصكِ الحشرُ  
ولكنَّ كبرًا أنْ يقالَ به كبرٌ  
وبزته نارُ الحربِ وهو لها جمرٌ  
لعيدي به ممن يحبُّ له الدهرُ  
فما عريَّتْ منها تميمٌ ولا بكرٌ  
 وإنْ لم يكنْ فيه سحابٌ ولا قطرٌ  
بإسقائِها قبرًا وفي لحدِ البحرِ  
غداةُ ثوى إلَّا اشتهرَ أنها قبرٌ

فتَّى مات بينَ الطعنِ والضربِ ميتةً  
وما مات حتَّى مات مضربُ سيفِه  
وقد كانَ فوتُ الموتِ سهلاً فرده  
ونفسُ تعافِ العارِ حتَّى كأنَّما  
فأثبتَتْ في مستنقعِ الموتِ رجلَه  
فتَّى كانَ عذبُ الروحِ لا منْ غضاضةٍ  
فتَّى سلبَتْهُ الخيلُ وهو حمى لها  
لئنْ أبغضَ الدهرَ الخئونَ لفقدِه  
لئنْ ألبستْ فيه المصيبةَ طبيَّه  
سقَى الغيثَ غيَّثًا وارتَ الأرضَ هدبَه  
وكيفَ احتمالي للغيوثِ صنيعةَ  
مضي طاهرَ الأثوابَ لم تَبقَ روضَهُ

والمرثية المشهورة لأبي الحسنِ الأنباريِّ في الوزيرِ المصلوبِ محمدِ بنِ بقيةِ المعروفِ بنَ صيرِ الدولةِ، ويروى أنَّ الذي صلبَه وهو عزِّ الدولةِ بنَ بختيارِ من سلاطينِ آلِ بويه لما سعها فتنته فقالَ: وددت لو كنتُ أنا المصلوبُ، وهذه القصيدةُ فيَّ. أتلوها على مسامعِكم منها الأبياتُ التاليةُ:

علو في الحياة وفي المماتِ لَحُقُّ تلكِ إحدى المعجزاتِ

وَفِودْ نَدَكْ أَيَامُ الصلات  
كَمْدَهْمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَات  
يَضْمُنْ غُلَكْ مِنْ بَعْدِ الوفَة  
عَنِ الْأَكْفَانِ ثُوبُ السَّافِيَات  
تَمْكِنْ مِنْ عَنَاقِ الْمُكْرَمَات  
فَأَنْتَ قَتِيلُ ثَأْرِ النَّائِبَات

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا  
مَدَدْ يَدِيكَ نَحْوَهُمْ احتِفَاءً  
وَلَمَا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ  
أَسَارُوا الْجَوَقَبَرْكَ وَاسْتَعَاضُوا  
وَلَمْ أَرْ مُثْلَ جَذْعَكَ قَطْ جَذْعًا  
أَسَأْتَ إِلَى النَّوَائِبِ فَاسْتَثَارت

ويحسب من هذه الطبقة قصيدة القاضي ابن عياض في الأمير بن نصر، ومنها قوله:

كأن ابن نصر سائراً في سريره  
ييمر على الوادي فتثنى رمالهُ  
أناعيه أنَّ النقوس منوطهُ  
بفريك الثرى لم تدر من حل في الثرى  
هو السيد المهترز للتم بدره  
أفلاض عيون الناس حتى كأنما

وقلت أنا في مطلع قصيدة نظمتها سنة ١٩٠٣، وكانت في القاهرة أرثي غريق النيل  
جبران بن كحيل، أحد متقدمي الجالية السورية هناك:

فما أنت تعذل بل تعذر  
وحتى المياه غدت تغدر  
إليك وهل هو لا يغفر  
بسيل مدامع ينحدر  
قلوب بك اليوم تستعر  
ره طي كل حشى يقبر  
فيما لإله غدا يُكفر  
ته قد يلين لها الحجر

وأمامَ الجرأة والصراحة فمن أمثلتها المشهورة في التاريخ جواب ذلك الأعرابي لل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، لما قال عمر وهو على المنبر: «من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه». فأجابه الأعرابي: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بقوائم سيفوننا».

وقول شريك بن الأعور — وقيل غيره — لعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، وقد أراد معاوية إهانته عن طريق الممازحة، فأجابه ذلك وهو من رعایاه: «يا ابن هند متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرازاً، والله يا ابن هند إنَّ القلوب التي أبغضناكم بها لم تزل في صدورنا، وإنَّ السيف التي حاربناكم بها لم تزل على جنباتنا، وإنكم لا تدنون من الحرب شبراً حتى تتقدمنا منها ذراعاً».

وانتقد للحجاج أمير العراق الطاغية السفال أنه رأى أعرابياً شيئاً مقبلاً من صدر الbadia فقال له: «يا أعرابي يجب أن تشكروا الله لولايتي عليكم». فأجابه: «إننا نشكر الله على نعم كثيرة، وأماماً على ولaitكم ففي أي وجهه تزيد؟» قال: «لأنِّي منذ وليت عليكم لم يصبكم الطاعون». قال الشيخ: «إنَّ الله أكرم وأرحم من أنْ يجمع علينا بين ولaitكم والطاعون». فضحك الحجاج وخلى سبيله.

ومن هذا القبيل ما روی عن قيس بن الملوح العامري — المعروف بمجنون ليل — قالوا: إنَّ أحد الخلفاء الأمويين — والمرجح أنه عبد الملك بن مروان إذا صحت رواية الحادث — دعاه إلى مجلسه، وقال له: «ويحك يا قيس بأيِّ عين نظرت إلى ليلي ففهمت بها هذا الهيام، وهي ليست أجمل النساء؟» فأجابه العامري فوراً: «بالعين التي نظر الناس بها إليك فجعلوك ملكَهم وخليفتهم، وأنت لست أفضل الرجال».

ويحكي أنَّ الخليفة عبد الملك بن مروان قال يوماً لشاعره الخصوصي الأخطل التغلبي النصراني، وكان من مدمني الخمرة: «صف لي الخمرة يا غياث وأوجز». فأجابه: «يا أمير المؤمنين الخمرة أولها جنون، وأخرها صداع». فقال الخليفة: «فما الذي يحبها إليك وهي على هذه الصفة؟» قال: «ولكن بينهما يا أمير المؤمنين ساعة لا أبيعها بملكك». وقيل: بل قال: «ولكن بينهما يا أمير المؤمنين ساعة لا أرى ملكك في جنبها إلَّا كلعقة من نهر الفرات». ثم أنسد:

إذا ما نديمي صب لي ثم صب لي	ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجر الذيل تيهًا كأنني	عليك أمير المؤمنين أميرُ

فضحك الخليفة، وقال له: «أغرب عن وجهي، والله لست من المهتدين».

وقال له الخليفة المشار إليه في يوم آخر: «يا غياث إذا دخلت في الإسلام جعلنا لك عطاء في أعطية المسلمين». فأجابه: «إنني طوع يدي أمير المؤمنين في كل شيء ما عدا أمررين». قال: ما هما؟ قال: العرض والدين، فابتسم الخليفة وأجابه: «لا بأس عليك، وإنما أردت ممتازحتك».

ومن أمثلة الجرأة والصراحة في الشعر قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان أبي قابوس، ورد ما اتهم به لديه من أنه جحد فضل النعمان، وأصبح يخامر عليه في الشام وهو عند الملوك الغساسنة، فقال له النابغة ما معناه: إنَّ الخيانة والمخامرة ليست من شأنه، وإنما هو يمدح الغسانيين؛ لأنَّهم أحبوه وأكرموه، كما أنَّ النعمان يكرم الشعراء الذين حواليه، وهذا الذي قاله:

أَحَكْمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ  
فِلْمَ تَرْهِمُ فِي مَدْحُومِ لَكَ أَذْنِبُوا  
مُلُوكٌ وَإِخْرَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتَهُمْ  
كَفَعْلُكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفِيتَهُمْ

وأغرب من ذلك في الجرأة والصراحة ما قاله في شعره أبو عبادة البحتري راثياً الخليفة المتوكّل على الله، وكان ولـي عهـدـهـ المـنـتـصـرـ قدـ أـوـعـزـ إـلـىـ الجنـوـدـ الأـتـرـاكـ فيـ القـصـرـ باـغـيـتـالـهـ لـنـفـورـ شـدـيدـ طـالـ أـمـدـ بـيـنـ الأـبـ وـابـنـهـ، وـقـدـ نـالـ الـابـنـ مـنـهـ قـوـارـصـ عـدـيـدةـ أـلـيمـةـ، حتىـ عـيـلـ صـبـرـهـ. قالـ الـبـحـتـرـيـ:

صريح تقاضاه السيف حشاشة  
حرام على الراح بعدك أو أرى  
وهل يُرجى أنْ يطلب الثأر طالب  
فلا مُلِي الباقى تراث الذى مضى

— ومن الجرأة والصراحة أنَّ الشَّرِيفَ الرَّضِيَ الَّذِي تُوفِيَ فِي حُدُودِ سَنَةِ ٤٠٠ هـ لِلْهِجَةِ — أَيْ: بَعْدَ وَفَاتَةِ الْمُتَنبِّيِّ بِنْ حُمَيْدٍ سَنَةَ ٤٥٥ هـ — أَنْشَدَ خَلِيفَةً زَمَانِهِ الْعَبَاسِيَّ الْقَادِرَ بِاللَّهِ قَصْدَةً حَاءَ فِيهَا قَوْلَهُ:

**عطفاً أمير المؤمنين فإننا  
لا الخلافة ميتك فإنني**

قيل: فتبسم الخليفة، وقال للشاعر: «برغم أنف الشريف». ثم مضت أيام و كان الشريف في مجلس الخليفة، وقد قبض لحيته بيمناه، وأخذ يرفعها نحو وجهه حتى تمس أنفه، ثم يحدراها، ثم يعيد رفعها — فعل المثلثي — فقال الخليفة مازحاً: «لعلك تشم منها رائحة الخلافة». فأجابه: «بل أشم ما هو أعظم من الخلافة وأكرم؛ لأنه أصلها ومصدرها، أشم رائحة النبوة». يريد أنه من سلالة حضرة النبي العربي، وليس الخليفة وأسرته كذلك، فسكت الخليفة عن الجواب، وتحول الحديث إلى مجرّأ آخر.

والشاعر المجيد مهيار الديلمي تلميذ الشريف الرضي المتّدّب بأدبِه، ظهرت منه مثل هذه الحمية على دينه العربي الإسلامي، ونسبة الديلمي الفارسي إذ كان فارسي النجار عربي النشأة والثقافة والدار. فقال مخاطباً حبيبه منتقلًا من النسيب والتشبيب إلى هذا الغرض الجليل القدر:

أنا من يرضيك عند النسب ومশوا فوق رءوس الحقب وقبست الدين عن خير نبي	لا تظني نسباً يقعد بي قومي استولوا على الدهر فتنى قد ورثت المجد عن خير أب
--	---

وقال الأبيوردي مندداً بوزراء زمانه تنديداً مؤلماً غير حاسب لسلطوتهم حساباً:

يردون إن حبيتهم بالحواجب فعين صواب الرأي تخجيل كاذب	وكيف أرججي دولة وزراؤها مصيبون في تخيبهم كل مادح
--	---

وأمّا الإشارات اللطيفة والكتنایات في القول فهي أعظم الدلائل وأوضحتها على فطنة العرب وحدها أذهانهم، ولهم في هذه الناحية شيءٌ كثیر، ومعظمها يسمى ملاحن، أو لحن القول، أو الكلام الموجه — أي: ما كان له وجهان، وجه قريب غير مقصود، وجه بعيد هو الذي قصده صاحبه.

ومن أمثلة هذا الباب أنَّ رجلاً شرب حمراً، فسُكِرَ، فسقط، فُسْجَ رأسه، فشد عليه عصابةً، وفي صبيحة اليوم التالي زار صديقاً له من أهل الأدب وعند جماعة، فسألته صاحب البيت: ما بال رأسك معصوباً؟ فكره أنْ يكذب، وخاف أنْ يصدق، فيفضح نفسه أمام أناس غرباء عنه، فأجاب صديقه: ركبت أمس مهرى الأشقر فكبا بي وأصابتني شجة. ففهم أولئك من العبارة ظاهراها، ولم يستغربوا الأمر، وأمّا صديقه — وكان يعلم

أنه ليس للمعصوب مهر، ولا هو من متّعوّدي ركوب الخيل — فعلم مراده، وفطن إلى أنه قصد بالمهر الأشقر الخمرة الشقراء اللون. ومن هذا القبيل قول أحدهم:

وما يك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

أورد في عجز البيت كنaitين عن محبته للضيوف، وكرمه في ضيافتهم؛ لأن جبن الكلب يكتنّى به عن أنسه بالزوار؛ لكثره رؤيته إياهم، فلا ينبعهم، وهزال الفصيل كناتية عن عدم شبعه من رضاعة أمّه، إذ يحتلب كل ما في ضرعها تقربياً لأجل قرئ الضيوف. ومن هذا القبيل قول القائل في وصف حالة قوم:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

كناتية عن فقرهم؛ ولهذا تظل مطابخهم نظيفة لقلة استعمالها، ونساؤهم لا تتعب في طبخ القدور، ولا في غسل مناديل الأكلين — أي: فوطّهم — لعدم وجود شيء من ذلك. وأمّا المداعبةُ وخفة الروح فهما أيضًا من شيمِ النفس العربية مثل الإباء، والجرأة، والحميّة، وشدة الانفعال فرحاً أو حزناً، وسرعة الانتقال من رضي إلى غضب، ومن غضب إلى رضي. وهذه الشيم لها آثار ظاهرة في الأدب العربي، وقد تقدم معنا أمثلةٌ كافية عليها، وبقي أن نورد أمثلة على المداعبة وخفة الروح.

سئل أعرابي عن وليمة حضرها في أيام القبيظ، ولم يكن راضياً عنها، فقال: «كل شيء كان فيها بارداً إلّا الماء». وأثنى رجلٌ على شعر شاعر يوده فقال: إنَّ شعره كالماء — ي يريد سلاسة وعذوبة — فأجابه أحدُ ساميّه: نعم، ولكنه كماء البئر في الصيف، يُريده في برودته.

وسأل الفقيه الشعبي رجالًا فقراء عن إبلهم، وقد رآها جربى: «ألا تعالجون هذه الإبل بما يقاوم جربها؟» فقال له أحدهم: إن لنا أمّاً عجوزًا صالحة تدعوا لنا ولجمالنا، ونحن نتكل على دعائهما، فقال الشعبي: لا يأس أَنْ تمزجوا بدعائهما شيئاً من القطران. وسأل رجلٌ أحد أئمة الأدب: ما الشبه الذي يقصده الشعراء بجعل المرأة الحسنة كالظبيّة؟ فشرح له الأستاذ وجه الشبه بلفتات الظبيّة، وعنقها، وعيّنها، ونحافة عطفتها، وكان شرحه واضحاً بسيطاً فهمه السامعون إلّا السائل الذي قال له بعد كل ذلك الشرح: نعم، أصبت وأحسنت، ولكنك لم تُفهم مني بأي شيء تشبه حسناء النساء بهيمة كالغزال؟

فيئس الأستاذ منه، واعتراه شيءٌ من الغضب، فأجابه: تشبهها بذنبها وقرونها، فانقلب مجلس ضحكاً، وانسل الرجل هارباً.  
وعلى ذكر قرون الظبية تذكرت بيتين لأحد شعرائنا العصريين وأظنه الشيخ إسكندر العازار، قال:

فَتَجْمَعَتْ كُلُّ الْمَحَاسِنِ فِيكِ  
أَمَّا الْقَرُونُ فَإِنَّهَا لِأَبِيكِ

وكان العرب يسخرون بمن يدعي زوراً شرف النسب النبوى، فيقولون: «فلان ابن عم النبي من الدليل، والدليل اسم بغلة أهدتها المقوقس صاحب مصر إلى حضرة النبي، وقيل: إنها أول بغلة رؤيت في الإسلام». ومن هذا القبيل قول الشاعر فيمن يدعى بطلاً الشعر والنسب النبوى معاً:

ما فِيکِ مِنْ جَدِّ النَّبِيِّ سُویٍّ      إِنْكَ لَا يَنْبَغِي لَكَ الشِّعْرُ

أراد بذلك الإشارة إلى قول القرآن الكريم: ﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، ومن أهاجيهم التي فيها مداعبةً وتهكمًّا لطيف قول القائل:

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَكَ مَفَاخِرًا      فَقُلْ عَدْ عَنْ ذَا كِيفْ أَكْلَ لِلضَّبْ

وَطَالَمَا عُيِّرَتْ بَنُو تَمِيمٍ أَنْهَا تَأْكُلُ الضَّبَابَ. وَقَوْلُ الْآخِرِ:

أَعْدَ نَظَرًا يَا عَبْدَ قَيْسٍ لَعَلَّمَا      تَضَيِّعَ لَكَ النَّارَ الْحَمَارُ الْمَقِيدَا

وقول الثالث:

أَرْفَقَ بَعْمَرُو إِذَا مَا رَمْتَ نَسْبَتَهِ      فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوَارِيرِ

يريد أن ما يدعيه من نسب العروبة قسم – أي: سريع الانكسار كالقوارير – لأنه ملْفَق لا يتحمل نقداً أو تجريحاً. ومما لا يخلو من خفة روح قول القائل:

ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي  
وَلَا تُقْلِبُهُ الأُسْرَارُ جنِّبًا إِلَى جنْبٍ  
ولا أكتم الأسرار لكنْ أذيعها  
إِنَّ قَلِيلَ الْعُقْلِ مِنْ بَاتِ لِيلِهِ

وقول الآخر:

عتبت على الدنيا بتقاديم جاهل  
بنو الجهل أبناءي وأما ذنو النهي  
وتأخير ذي عقل فأبدت لي العذرا  
فإنهمُ أبناء ضرتَي الأخرى

وقال أحد الشعراء فيمن حاول أمراً بعد فرسته، وكان سهلاً عليه لو أراده في  
حيته:

ترَكَ الزيارة وهي هينة  
وأتاك من مصر على جمل

وقال غيره:

تسَأَلَنِي أُمْ وَهِيْ جَمِلاً  
يمشي رويداً ويكون الأولا

وقال بهاء الدين زهير:

قالوا فلان قد غدا تائباً  
فرُحْتُ عن توبته سائلاً  
والاليوم قد صلى مع الناس  
وجدتها توبة إفلاس

وقال أيضاً مخاطباً من أراد مقاطعتها:

رفع الخراج عن الخراب  
لا أقتضيك مودة

يُريد أنه لم تبق لها بقيةٌ من الحسن ونضارة الصبي. وقال الأمير أبي فراس الحمداني:

فيا أيها الجاني ونسأله عفوه      ويأيها الخاطي ونحن نتوب

وعلى هذا المنوال نسجَ كلامَهَ مَنْ قالَ:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم      وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

وقال شاعر في أمير كريم مدحه الشاعر خبيه ولم يقض حاجته:

فيما لك بحرًا لم أجد فيه مشرباً  
مديحي عصا موسى وذاك لأنني  
سامدح بعض الباخلين لعله  
وإنْ كان غيري واجداً فيه مسبحاً  
ضررت به بحر الندى فتضمضنا  
إذا اطرد المقياس أنْ يتسمحا

ويقال: إنَّ هذه الأبيات أضحت المدوح وأفادت المادح. وقال بعضهم:

نُبئت أن فتاةً كنت أخطبها      عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

عرقوبها – أي: ركبتها – قيل: إن الإمام ابن سيرين – المشهور بتفسير الأحلام –  
كان يضحك حتى يسيل لعابه كلما سمع هذا البيت. وقريبٌ منه في الدعاية على طريق  
الغلو قول القائل:

من رأى مثل غادتي      تُخجل البدر إن بدا  
تدخل اليوم ثم تد      خل أردادُها غدا

وأرادُ أعرابي أنْ يرحل عن أهل خطيبته بقصد فراقها وفراقهم إلى الأبد، ولكنه  
أوهمهم أنَّ رحلته موقته، وترك عندهم جبهة وحماره كأنهما رهينتان؛ لأجل تأمينهم:

ذهبت إلى الشيطان أخطب بنته      فأعلقها من شقوتي في حباليها

**وَخَلَّصَنِي مِنْهَا حَمَارِي وَجَبْتِي جَزِي اللَّهُ خَيْرًا جَبْتِي وَحَمَارِي**

ومن الأهاجي التي فيها مبالغة فكهة قول أحدهم يهجو مروان الكاتب في ضعف علمه بالحساب:

لو قيل كم خمس وخمس لأرتأى  
ويقول مسألة عجيب أمرها  
فيها خلاف ظاهر ومذاهب  
خمس وخمس ستة أو سبعة

ومن نمط هذا الهجو ما قيل في أمير أَسْوَد اللون كان يَدِّعِي شدة الفهم، ويقول: كأني خُلقت من نار.

إِن كُنْتَ مِنْ نَارٍ خَلَقْتَ  
كُلَّ النَّاسِ فَهُمْ  
أَطْفَالٌ حَتَّىٰ صَرَّتْ فَهُمْ  
عَوْلَاتُهُمْ أَدِيَا فَمَنْ

وَمَا فِيهِ خَفَةٌ رُّوحٌ قَوْلُ الْقَائِلِ:

**إذا رأيت العبد يهرب ثم لم يطلب فمولي العبد منه هارب**

وقول غرہ فی صدیق لہ علا مرکزہ فحفاہ:

سألت الله أن تسمو وتعلو  
فلمما أن علوت بعدت عنى  
علو النجم في كبد السماء  
فكان إذن على نفسى دعائى

وقول الشيخ ناصيف اليازجي:

طلبنا النوى يا من يقابل بالضد  
وكم طالب ما ليس يدرك بالجهد

طلبنا التداني فابتعدت فليتنا  
وكم واجد ما لم يكن طالبا له

وهذا الأسلوب الفكه مأخوذ في أصله من أسلوب جدي بقول القاضي ناصح الدين الأرجاني:

لليلى وإما طالبًا غير طالب      وما زلت إما واجدا غير واجد

وقال حافظ بك إبراهيم منددا ب الرجال الاحتلال في مصر:

حواشيه حتى صار ظلماً منظماً  
فلا تكُ مصرِيَاً ولا تك مسلماً

وقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت  
إذا رمت أن تلقى السعادة بينهم

ومن المداعبات الأدبية الطيبة الدالة على فهم وسرعة خاطر، ما أورده في قصيدة عبد الله التنوخي المعروف بابن القاضي، وجُلُّ ما جاء في أبياته مبنيٌ على اصطلاحات علم العيافة عند العرب، ومرجعها إلى تجانس الألفاظ في تفاؤل أو تشاؤم، كأنْ يتشارعون بالغраб وشجر البان؛ لأن لفظهما قريبٌ من الغربة والبُين، ويتفاءلون بالغَنَم؛ لأن لفظه قريب من الغنيمة. قال عبد الله التنوخي في جملة قصيدته:

غواربها منها معاطس رعف  
فقد رابني من طول ما يتشفوف  
وتوقف أحقاف المطي فيوقف  
بها مستهام قالتا نتلاطف  
مني والمني في خيفة ليس يخالف  
بأن عنَّ لي منك البنان المطرف  
بمعرفة من عطف قلبك أسعف  
لنا وزمان بالمودة يعطف  
وقالت أحاديث العيافة زخرف  
على فمه برد الكلام المفوف  
وقولا ستدربي أيانا اليوم أعييف  
ففي الخيف من أغراضنا تتخوف  
حرام وأنا عن مزارك نتصدف

نظرت إليها والمطى كأنما  
فقالت أمَا منكن من يعرف الفتى  
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا  
فقلت لتربيها أبلغها بأنني  
وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا  
تفاءلت في أن تبذلني طارف الوفا  
وفي عرفات ما يخبر أنني  
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة  
فأوصلتنا ما قلته فتبسمت  
بعيشي ألم أخبركم أنه فتى  
فلا تأمنا — ما اسطعتما — كيْد نطقه  
إذا كنت ترجو في مني الفوز بالمني  
وقد أندذر الإحرام أن وصالنا

بأن النوى بي عن ديارك تقدف  
سريرع فقل من بالعيافة أعرف  
لكل لسان ذو غرarin مرهف

وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر  
وحاذر نفاري ليلة التفر إنه  
فلم أرَ مثلينا خلياً مودة

# النواحي التي اتهم الأدب العربي بالعجز فيها

هذه التهم لا يخلو بعضها من حق، ولكن معظمها تغلب عليه المبالغة والوهم، وتحصر التهم المذكورة في النواحي الآتية: القصة وفن التمثيل، السياسة والإدارة، الاجتماع والعلم، الألفاظ الفنية لمستحدثات هذا العصر، وحُدة الغرض وجعله محوراً يدور عليه الكلام.

أما القصة وفن التمثيل فلا شك أنهما لم يخصبا ويزدهرا في الأدب العربي كما أخصبا وازدهرا في الأداب الإفرنجية، لأن أدبنا عاجز بطبيعته عنهما بل لأن أدباءنا لم يولعوا بهما ويلتفتوا إليهما كما أولعوا وشغفوا بغيرهما من ألوان الأدب. ودليلي على ذلك وجود النوع القصصي والتتمثيلي بمقدار يستحق الذكر، وإن لم يكن مقداراً عظيماً في آثارنا الأدبية الجديدة تأليفاً وترجمة، والقصة منها وجدت في جميع عصور الأدب العربي، ولا يزال سلطان القصة والتتمثيل عندنا يشتد ويمتد بصورة مطردة.

ولما وصلت إلى هنا تذكرت قصيدة لي قديمة فيها قصة خيالية رمزية، أخرج منها إلى النتيجة المتواخة من المقام الذي كنت فيه، وهي التحذير من السكر، وإنذار الناس أنّ عادته تدهم صاحبها تدريجاً، حتى تجعله أسيئها فصريعها.

ذكرت شاباً وسيم الطلعة، حلو الشمائل، رأيته عرضاً في أحد المنتزهات، ثم قلت:

ل قد بدت مجلساً في مركز وسم  
مهلاً فما هي إلا مجلس الندم  
يهوي بصاحبه لليم عن أمم  
وهكذا عن سماعي كان في صمم

وكان في جانب للنهر قطعة رم  
فقام شوقاً ليغشاها فقلت له  
فسطحها غير مأمون لرقته  
أجاب لا تخش إني حازم يقظ

مكان يسعى إليه ثابت القدم  
يغور بي أو يكون اللج ملتهمي  
أعاره جهده شيئاً من الألم  
سمروج تزهو بنور البدر في القمم  
صوت من الموج حلو السير منتظم  
عاس سهل فلم يعرض ولم يجم  
بل كان مجلسه في حكم منهم  
ينحو رويداً رويداً عالم العدم  
عَدُو لائقه من تلکم النقم  
جري عليه قضاء البارئ النسم  
ولا صباحاً وأواه مع الررم  
مفكراً حائراً في زعي ذي لمم  
رمز إلى السكر هذا فاتعظ وقم

تركته يائساً منه وقام إلى الـ  
وقال أقضى يسیر الوقت فيه فلا  
لكنه ما قضى الوقت اليسيير وقد  
 واستنشق النسمات الطيبات من الـ  
وحاك فيه هدوء الليل يقلقه  
حتى أهاب به داعي النعاس وما النـ  
أغفى ولم تخف عنه عين مصرعه  
ينهار شيئاً فشيئاً والشقى به  
كذا بدا لي عن بعد فرحت على  
لكنني قبلما أدركت موضعه  
اغتاله اللج لم يرحم محاسنه  
وبينما كنت أبكيه وأندبه  
سمعت صوتاً من الأفلak يهتف بي

وأمّا السياسة والإدارة فقد ظهرتا في أدبنا على الشكل الذي يوافق زمانهما، ظهرتا بصبغة حزبية يوم كانت أحزاب العرب تتطاحن، لا سيما بين أممية وعباسية، وبين عباسية وفاطمية، وأمّا في هذه الأيام فقد تضاءل أثر هذا اللون الأدبي، أو زال بطبيعة الحال، فليس لنا ما يوجب ذلك، أو يسيغه من وجود دول عربية تامة الاستقلال مع بروز خصومات لدودة في صميمها.

وكلاماً احتجي اليوم إلى كلام في السياسة أو الإداره، فالصحافة تقوم مقام الشعر على أهون سبيل، وتتأتي من التفصيلات ما لا يستطيع الشعر بعضه، وأمّا فيما سبق فهمما نسي راوي الأدب، فلا أظنه ينسى شأن ذينكم البيتين اللذين أنشدهما سديف مولىبني العباس الخليفة الأول العباسي أباً محمد السفاح، موغراً صدره على ضيوفه ساعتنى من أمراء أمية، وكانوا سبعين أميراً، حتى ثار ثائر الخليفة، وأمر بقتلهم فقتلوا جميعاً، والبيتان هما:

إنَّ طي الضلوع داء دويًّا  
لا يغرنك ما ترى من وجوه  
فضع السيف وارفع السوط حتى  
لا ترى فوق ظهرها أمويًّا

النواحي التي اتهم الأدب العربي بالعجز فيها

وأقرب من هذا الحادث أنَّ بعض أعداء البرامكة وحسادهم دسوا عليهم إحدى المغنيات الشهيرات، فغنت بحضور الخليفة هارون الرشيد البيتين التاليين:

ليت هنَّا أنجزتنا ما تجد  
وشفت أنفسنا مما تجد  
إنما العاجز من لا يستبد  
واستبدت مرة واحدة

وجعلت تردد العجز الأخير مرارًا حتى تنبه ذهن الخليفة أشد تنبه إلى حاله مع البرامكة، وكانوا قد احتكروا أعمال الملكة وتدميرها، فصاح: والله ما العاجز إلا أنا، ولكنني لن أبقى كذلك وبعد أيام يسيرة فتك بالبرامكة.

وأمَّا الاجتماع والعلم فلهمَا في الأدب العربي شأنان مختلفان، إنَّ الاجتماعيات من أقسامها مكارم الأخلاق، وكل ما يتعلق بكيفية المعايشة والمعاشرة وأداب السلوك، وهذه أمور لها في أدبنا حيز غير صغير، وإنْ بدا صغيراً لعين الذي لا يحسن التأمل؛ لأنَّ غيرها من الأبواب يكاد يغمرها ويخفِّيها عن النظر — أي: أبواب الفخر، والحماسة، والغزل، والنسيب، والمدح، والتنهئة — فإذا أعاد القارئ النظر، وأحكم البحث رأها ضارة بسُبُّهم صالح من الأدب العربي، ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، والأدب الكبير والأدب الصغير للجاحظ، ومقدمة ابن خلدون، وعدة فصول للماوردي والقلبي. ومن آثار أبناء العصر كتابات لفارس الشدياق، والشيخ نجيب الحداد، والمنفلطي، وولي الدين يكن، وغيرهم جمهور عظيم.

بقي أمر المباحث العلمية ونصيبها من الأدب العربي ضئيل بحد ذاته، ولا غضاضة في ذلك، فهذه المباحث ومثلها المباحث الفلسفية يجب أنْ تُطلب في مواطنها، وما الأدب إلا دار غربة لها؛ لأنَّه لا يتحمل فيها بسطاً وإشباعاً، وإنما أوطانها أقلام العلماء وال فلاسفة، فمن أرادها فليلتمسها في آثارهم ضارباً صفحًا عن النابغة، ولبيد، وأبي تمام، والبحترى، وأبي نواس، وبهاء الدين، وخليل مطران، وشوقى، وأضرابهم. نعم، إنَّ الأدب المحض يحتمل من مباحث العالم إشارات ولحات، بل تكون له هذه إذا أحسن استخدامها زيادة بهجة، ودعامة قوة وتأييد، ولم يعد أدبنا العربي بصيصاً من هذه الإشارات واللحات، ومن ذلك قول سعد الدين بن العربي:

أُلقيت أكسير اللحاظ بخده فقلبت فضته النقية عسجاً

وقول غيره:

لَمْ أُنْسِهِ إِذْ قَالَ أَيْنَ تَحْلِنِي  
فَأَجْبَتْهُ فِي الْقَلْبِ قَالَ تَعْجِبًا

حضرًا علىًّ من الخيال الطارق  
أرأيت وبحك ساكنًا في خافق

وقول غيره:

وَمَا بَالْ بَرْهَانُ العَذَارِ مُسْلِمًا

ويلزمـه دور وفيه تسلسل

وقول الآخر:

شَهَدْتُ لَوْاحِظُهُ عَلَى بَرِيبَةِ  
يَا قاضِي الْحُبِ اتَّئَدَ فِي قَتْلَتِي

وأَتَتْ بِخَطِ عَذَارَهْ تَذَكَّارَا  
فَالْخُطْ زُورَ وَالشَّهُودَ سَكَارِي

وقول بعضهم:

لَا فَضْلٌ لِي فِيمَا بَعْثَتْ لِأَنِّي  
كَالْبَحْرِ يَمْطُرُهُ السَّحَابُ وَمَا لَهُ

أَهْدَيْتُ لَهُ مَا نَلَتْ مِنْ نِعْمَائِهِ  
فَضْلٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ مَائِهِ

وقول الرئيس ابن سينا:

اجْعَلْ طَعَامَكْ كُلَّ يَوْمٍ أَكْلَةً  
وَاحْفَظْ مَنِيًّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ

واحدـزـ طعامـاً قبلـ هضمـ طعامـ

ماءـ الحياةـ يراقـ فيـ الأرحـامـ

وقول إبراهيم الحوراني:

مَحْمُولٌ أَمْ الْمَجْدُ مَوْضِعُ الْعُلَى

روحـي فـدىـ المـحمـولـ والمـوضـوعـ

والمحمول والموضوع عند أهل المنطق هما المسند إليه والمسند عند أهل العربية، وربما امتد نفس الأدب إلى أكثر من هذه الإشارات الخفيفة في مباحث العلم، وهكذا فعل الشيخ إبراهيم اليازجي ناظماً في كوكب الزهرة قصيدة عامرة منها قوله:

ف تلك أبياتها في عدوة الوادي  
عليه أطناها من غير أوتاد  
لا ينقضي بين تأويب وأساد  
بل أنت سوغ لنا من عهد ميلاد  
ولا سبيل لملاح ولا حاد  
أيدي الفضا دون لقيانا بإسداد  
وهل لديك رجال أهل إرصاد  
في ليلهم بين تصويب وإصعاد

قف بي نَحَّيْ رباها أيها الحادي  
قد خيمت باللوى الغربي ضاربة  
مقيمة لم تقم إلَّا على سفر  
فنبئنا — رعاك الله — جارتنا  
قد انقطعنا فما إِنْ بيننا صلة  
ولم يكن بيننا سد وقد ضربت  
يا ليت شعري هل تدرين موضعنَا  
وهل رأوا ركبنا النوري منطلقاً

أما التقصير في الألفاظ الفنية المستحدثات هذا العصر، فلا أنكر أنه موجود في لغتنا وأدبنا، وإننا لا نزال نُعاني مضضه وألمه، ولكننا أحذنا نكافحة مكافحة ناجحة منذ خمسين سنة، بحيث أوجدنا قسمًا من هذه الألفاظ التي تعوزنا عن طريق الاستقاء والمحاجز، وبقي علينا قسم آخر نرجو سَدَّ ثلمته رويدًا رويدًا، ولعلَّنا قضينا إلى الآن نصف حاجتنا في هذه الناحية الواسعة الأرجاء.

وأقرب دليل على نجاحنا في هذا السبيل أنَّ المدرسة الجامعية في دمشق، ومدارس الحكومة فيسائر سوريا مع كثير من مدارس القطر المصري؛ اتخذت اللغة العربية لتدريس العلوم والفنون المختلفة، وكلها سائرة على قدم النجاح، ولا عبرة بما يعترض المدارس أحياناً من صعوبة جزئية وحيرة مؤقتة؛ فهذه المزعجات منتظرة في فجر هذا الانتقال، وستزول بعد سنوات يسيرة.

وكل ما عندي في هذا الصدد وجوب اتخاذ الحيطة التي ناديت مراراً باتخاذها، وجوب اتفاق علمائنا وأدبائنا ومجامعنا على كل لفظ فني جديد؛ لكي يستعمله الناطقون بالضاد على السواء، ويتفاهموا به على السواء، وإلَّا وُجدَ لكل معنى جديد وكل غرض جديد لفظان أو عدة ألفاظ مما يُحدث ارتباكاً وتشوشاً، بل يهدد وحدة لغتنا الفصحى، وإن لم يظهر خطر ذلك في عصرنا الحاضر فلا بدًّ من ظهوره في عصر مقبل، ما دمنا لا نتخذ الحيطة المذكورة لتوحيد الآراء والأحكام في هذا السبيل.

ومناسبة لهذه الناحية أقول: إنَّ كثريين تعودوا أنْ ينعوا على لغتنا كثرة المترادفات فيها على غير طائل، وقولهم هذا فيه مبالغة، وشططٌ في الحكم؛ إذ يُجسّمون القبيح من متعلقاته، ويضربون صفحًا عن الحسن، لا ننكر أنَّ في لغتنا ثبات من المترادفات الكثيرة، ولكن هذا الكثير لم يوضع إلَّا لقليلٍ من المعاني، فإنَّ المترادفات الكثيرة المضلة تتحضر في الأسماء الحسنة، أي: أسماء الله – عز وجل – وأسماء حضرة النبي العربي، وفي اسم السيف، والرمح، والجمل، والبحر، والخمر، والداهية مع قليلٍ غيرها.

فليس الخطب فيها عظيماً ما دامت لا تزيد على بضعة عشر اسمًا، وما اقتضى كثرتها معايش أهلها الأولين في الجاهلية، واختلاف مصطلحاتهم حسب اختلاف قبائلهم، وأمّا غيرها من المترادفات فهي قليلة العدد لكل معنىٍ يُراد، أي: أنه قد يكون للمعنى الواحد مرادفان، أو بضعة مرادفات، ومما يجب التنبية عليه بهذا الصدد أنَّ عندنا مترادفات ليست بالمتراوفات المضلة، بل بينها فروق في المعنى حسب كمية الشيء، أو نوعه، أو حالات مختلفة من أحواله.

وهذا لا يحسب على الأدب العربي عيباً، بل برهاناً جلياً على الدقة والwsعة، مما قدمت عليه أمثلة كافية منذ سنوات في خطابي الذي عنوانه: «نحن ولغتنا العربية في العصر الحاضر»، وهذا هو الوجه الحسن الذي قلت: إنَّ جمهوراً من النقاد يضربون عنه صفحًا، إمَّا عمداً وإمَّا جهلاً، وإمَّا سهواً.

وأمّا عدم العناية بوحدة الفرض، الذي يجب أنْ يجعل محوراً يدور عليه القول في كلياته وجزئياته؛ فهو تقصيرٌ لعله وقع في شيء من آثار العصور الأولى، لا سيما العصر الجاهلي يوم كان البدوي يُطلق لقريحته وعواطفه العنوان غير متقييد بشيء؛ وذلك بمقتضى فطرته وما تعوده في معيشته. وأمّا معظم آثارنا الأدبية فيما عدا ذلك فلا تفوتها وحدة الغرض ووضوحه، لا سيما أقوال الكُتاب والشعراء في نهضتنا الحديثة.

وخير ما أختتم به بحثي الحاضر إجمال ما فصلته من أنَّ الأدب العربي مشرقُ الوجه، جميل المحتوى، حلو الشمائل؛ لأنَّ وراءه سندًا ومدىًّا عظيماً من لغته التي فيها – مع قوتها العجيبة – مرونةٌ وطوعانية. وقد برهنت على ذلك بما حواه صدرها من كنوز آثار المدنيات القديمة، وهضمها في أحشائها هنيئاً مريئاً بدون أنْ يصيبها شيءٌ من سوء الهضم.

وأظن خمسة عشر قرناً كافية للشهادة بذلك وتأييده، فما بال خاصتنا في العلم والأدب، وخاصتنا في الثروة والجاه، ونفوذ الكلمة لا يُحذون حذو أسلافهم الكرام في إنشاش لغتهم وأدابها بشتى الوسائل الفعالة، حتى جعلوها واسطة العقد بين اللغات الحية في تلك العصور مما استحقّتها بطبعيتها ومركزها، فلم يجهل أولياؤها ذلك الحق ولم يتتجاهلوه، بل عملوا على تحصيله فحملوه، وأصبح بذلك اسمهم خالداً مسكي النفحات:

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهُمْ فَزَدَنِي  
هُوَ أَمْ هُوَ لَمْ يَعْرِفْ الْقَلْبَ غَيْرَهُ  
هِيَمَا فَزَدَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدٍ  
فَمَا قَبْلَهُ قَبْلٌ وَلَا بَعْدَهُ بَعْدٌ

وأمّا ما أشرنا إليه من مطاعن الأدب العربي فهو لا يزيد على تسع أو عشر حسناته، وكل أدب من آداب الأمم العابرة والغابرة يعتريه من المطاعن ما يُعادل الذي ذكرناه أو يفوقه أضعافاً، وهو غير ممتنع إلا ببعض المحسن التي عُرف بها أدبنا. وأمّا نهضتنا الحديثة فخطواتها في التقدم ظاهرة للعيان، وإن لم تكن سريعة، والذي أراه أنها تتطلب ثلاثة شروط لكي تصبح آمنة مأمونة عزيزة الجانب:

**الشرط الأول:** إيجاد صلة معنوية وثيقة العرى بين الطبقة المفكرة منا، وطبقة أهل اليسار والتفوذ، وخيرٌ وسيلة لذلك أنْ يتذوق الموسرون النافدون طعم الأدب منذ نُعومة أظفارهم، فيعطيقون على أهله وأنصاره.

**الشرط الثاني:** أن تُقْلَم أظفارُ الأدب الخفيف – إذا صح تسميته أدبًا – ويقتصر على من صحافة غير راقية ولا نزاهة، ومن قصص تافهة، ونحو ذلك، وينشط الأدب الصحيح الذي هو فوق ما ذكر بصورة ظاهرة، سواء كان تصنيفًا، أو جمعًا، أو تعريبيًا.

**الشرط الثالث:** أن يُعني بحسن التعريب في متننا ورشاقة عن لغات الفرنجة، وإلا فالترجمات الضعيفة السخيفة يظل ضررها وخطورها على أدبنا أعظم من فوائدها.

ويضاف إلى هذه الشروط الثلاثة أن ينبه الأدباء وناشئة العلم إلى وجوب الحكم على كل أثر أدبي لذاته، أي: بغض النظر عن قائله، بحيث ينظر إلى القول بعين النقد الصحيح لا إلى القائل. فعلى هذا المنهاج يميز بين الغث والسمين في أدبنا، ويعطي كل

ني حق حق، ويختفي فيما بيننا سلطان تأثيرات جمة كالحزبية، والطائفية، والقربي، والصادقة، والمركز الاجتماعي والشهرة.  
وكثيراً ما تكون الشهرة في بلادنا مزيفة مصطنعة، أو ثوباً فضفاضاً على الواحد، وثوباً قصيراً ضيفاً على الآخر بعوامل مختلفة، فلا تحسب الشهرة ومقدارها بيننا مقيماً صحيحاً لاستحقاق ذوي القرائح، وإنما يمكن اتخاذها دليلاً استئناسيّاً، لا حجة دامغة لإصدار حكم حاسم ليس وراءه نقض ولا إبرام.

كذا داؤنا يا قومنا ودواونا  
فإإنْ نتهاونْ فالهلاك قريبُ  
وإنْ نتداركْ أمرنا فأمامنا طریقُ نجاۃ واضح ورحیبُ



